

كتاب المدخل الباهر في التمييز بين الخواطر

رمضان 1438 هـ - مايو 2017 م

هندَسَةُ الخَواطِرِ

تحقيق مخطوط

المَدَدُ البَاهِرُ

فِي

التَّمْيِيزِ بَيْنَ الخَوَاطِرِ

للعالـِم الشيخ عُبَيْدَةَ ابن الشيخ المُقْرِئ المُتْقِن محمّد الصّغير بن أنْبوجا الشَّنْقِيطِي

رحمه الله تعالى ونَفَعَ بِهِ

ضَبَطَ نَصَّه وعلّق عليه وأعدّه للنّشر :

سيّد محمّد مُرتاض (مرتضى) **سفيان بلحساين**

مع مُداخلات وتأمُّلات حول موضوع الخواطر الإنسانية ، بقلم المُحَقِّقَيْن

رمضان 1438 هـ - مايو 2017 م

الإهداء :

إلى فضيلة القارئ الشيخ عبد المنعم الطُّوخـي (1944-2007) رحمه الله تعالى

وإلى كلّ من له فضلٌ علينا

حذار من خواطرك , لأنّها ستصبح أقوالًا ..

حذار من أقوالك ، لأنّها ستصبح أفكارًا ..

حذار من أفكارك ، لأنّها ستصبح أفعالًا ..

حذار من أفعالك ، لأنّها ستصبح عادات ..

حذار من عاداتك ، لأنّها ستصبح قرارات ..

ثمّ حذار من قراراتك ، لأنّها ستحدّد مصيرك ...

الفهرس :

مقدّمة التّحقيق :

بسم الله ، والحمد لله ، والصّلاة والسّلام على رسول الله ، سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد ، نقدّم للقرّاء الكرام على اختلاف مستوياتهم وميولاتهم كتابًا جليلًا ، يُعينُ المبتدئ ، ولا يَسْتَغْني عنه المُنتهي ، لحاجة الكلّ إلى معرفة الخواطر ، التي هي أصل الصّغائر والكبائر ، والأكثر من ذلك أنّ الكتاب مخطوط لم يُحقَّق ، مع أنّ موضوعه في العباد لم يتَحقّق ، فدونك أيّها القارئ بهذا المخطوط ، فقد جَمَعَ صاحبُه فأوْعى ، وذلك أنّ تحقيقَ مخطوطٍ جليل خير من تأليف كتاب هزيل كما يقولون ، ثمّ أدلينا بدلونا ، وقدّمنا مداخلات قيّمة ، مستخلصة من كُتُبٍ قَيِّمة ، حول موضوع السّاعة ، وكلّ ساعة ، موضوعُ الخواطر والوارِدات ، وكيف تصنع نوعَ الحياة بل والمَمات ، وبالله التّوفيق ، وبيده وحْدَه أَزِمَّة التّحقيق .

عملنا مع المخطوط :

اقتصرنا على ضبط نصّه دون شرحٍ لغويّ لألفاظه ، لأنّها واضحة مفهومة في غالبها ، وكثيرًا ما يستخدم المؤلّف العبارات المسجوعة ، وإلا فلا بأس أخي القارئ باستخدام القاموس ، وهي عمومًا ألفاظٌ سهلة الفهم ، فلم نثقل النص بالشرح اللغوي ، كما أنّنا لم نُخَرِّجْ الآيات ولا الأحاديث على قلّة ورودها في النّصّ ، وفي بعض الأحيان نقوم بشرحٍ سريع لمقطع من المتن ووضعناه بين قوسين ،

ثمّ ننبّهك أخي القارئ ، أختي القارئة ، إلى أنّنا قُمنا بحذف مقاطع مِن النص المخطوط لعدم وجود فائدة لإيرادها ، وهي على قِلّتها لا تمسّ الفائدة العامّة المُتوخّاة مِن تحقيقنا لهذا المخطوط ، كما تَصَرّفنا في بعض الأحيان في كلام المصنِّف رحمه الله ، حتّى يستقيم المعنى أكثر لقارئٍ عصريّ ، وحذفنا بعض الأخطاء الإملائية الواضحة والتي ربّما وقع فيها النّاسخ ، والتي صَوّب النّاسخُ أيضا بعضًا منها على الهامش ؛ كلُّ هذا دون أن نُثْبِت هذه الأمور مِن حذفٍ أو تصرّفٍ في اللفظ أو تصحيحٍ للأخطاء الإملائية ونحوها في نَصِّنا المُحَقَّق ، حتّى يتّجه القارئ الكريم مباشرة نحو الفوائد التي زَخَر بها هذا المخطوط دون قَطْعٍ للنَّفَس ، ومَنْ شاء فليراجع النّصّ المخطوط ، ولكن قدّمنا هذه الطّبعة هكذا حتّى لا تبقى حُجَّة لمن قال أنّ المخطوطات صعْبة الفهم ، أو أنّها تَرَفٌ لا طائل مِن ورائه في عصرنا الحالي ، أو أنّها شأن أكاديمي بَحَتٌ ، أو أنها لا يقرؤها إلّا بعض المشايخ والطّلبة و العلماء دون عامّة المسلمين ، أو نحو ذلك ، وبذلك يكون نصُّنا هذا الذي حَقَّقْناه مُتاحًا للخاصّ والعامّ .

كما أفْرَدْنا عن المؤلّف رحمه الله ترجمةً مختصرة جِدّا حوله ، نظرا لوجودنا صعوبةً في الإهتداء إلى ترجمةٍ وافية عنه .

وإتمامًا للفائدة قُمْنا بمُداخلة تتعلّق بالموضوع الرّئيسي للمخطوط ، وهو موضوع الخواطرالإنسانية ، والتي هي مادّة الأفكار والأقوال والأعمال التي تَعْرِضُ للإنسان في يومه وليله ، وتقصّينا في الموضوع حسب الإمكان ، ومن كلام بعض المشايخ بإضافة ما فتح الله علينا به ، فجاء الكتاب شاملا في موضوعه وبابِه بإذن الله تعالى .

موضوع المخطوط وأهمّيّته :

المخطوطُ موضوعه كما هو واضحٌ من عنوانه هو خواطر الإنسان ، وتأثيرها على حياته ، وخطورة وأهمّية هذا الموضوع تَكمن في أنّ كثيرا جدّا مِن العباد لا يميّزون خواطرهم الرّبّانية مِن الشّيطانية مِن النّفسانية ، وبذلك تأتي عباداتهم ومُعاملاتهم على غير هُدًى مِن الله ورِضوانٍ ، لأنّهم وتبعًا لذلك لن يستطيعوا تمييز نيّاتهم لعدم تمييز خواطرهم ، وبالتالي لا يُفرّقون بين العادة والعِبادة ، و لا بين ما لِلْحَقّ وما لِلْخَلْق ، و لا بين الوارِد الرّبّاني و الوارِد الشّيطاني ، ثمّ يُلصقون التّهمة لاحِقًا في كَوْنِ الله تعالى قَضَاهُ وقَدَّرَه أوْ أنّه مكتوبٌ ونحو ذلك ، فلخطورة الموضوع في الوقت الحالي كما في الأزمان والعصور السّابقة حقَّقْنا هذا المخطوط الصّغير الحَجْم العظيم الجُرْم ، وصاحِبُه أتى بشيءٍ جديد ورائد في هذا الموضوع ، كما سترى ، سواءً من النّاحية النّظرية والتّمثيلية ، أو مِنْ ناحيةِ التّطبيقات والكَيفِيّات .

وصف المخطوط ونسخته :

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا المخطوط النّفيس على نسخة وحيدة عثرنا عليها على شبكة الأنترنت ، في موقع المكتبة السُّكيْرجيّة بالمغرب الشّقيق ، فَتَطَفَّلْنا على موائد الكِرام وقمنا بتحقيقها رجاء النّفع والقبول مِن الله تعالى ، وتقع المخطوطة في 23 صفحة من الحجم المتوسّط وفي حدود 21 سَطْرًا ، وكُتبت بخَطٍّ مغربي واضح ومقروء إلّا في كلمتين أو ثلاثة ، وقد أرفَقْنا نماذج مِن المخطوط كوثيقة مهمّة نُدَلِّل بها على صدق عملنا ومدى أهمّيّة النّصّ المُحَقَّق ،

كما نجهل تاريخ كتابة المخطوط وناسخها ، وهل قوبِلتْ على الأصل ، لأنّها نسخة إلكترونية مبتورة الغلاف ، ويبدو أنها تقع ضمن مجموعة أخرى من الرسائل ومجموعةً في مجلّد واحد ، ففي ختام هذه النسخة المخطوطة توجَد مباشرةً مقدّمة لكتاب آخر ؛ وكلّ هذا لا يَهمّنا بقدر ما يهمّ كما أسْلَفْنا تحصيل الفائدة المعنوية في طيّ هذا المخطوط النّفيس ، والذي لم يُحَقَّق في حدود عِلْمِنا إلى يومنا هذا رغم أهمّيّته كما قَدَّمْنا .

نماذج من النسخة المخطوطة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

كتاب العقد الباهر في التمييز بين الخواطر
للعالم التقي الصوفي سيدي أبي عبد الله بن
الشيخ التقي المقرئ المتفنن محمد الصغير بن أبي
النبوج رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين
يا أرحم الراحمين

بها

الحمد لله الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ونصلي ونسلم
على سيدنا محمد رسول الله الذي هو واسطة الوجود وأنسه وعلى آله
الطيبين وصحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
أما بعد فقد كثرت أيها الأخ المعتفر المنصف العطوف المتعطف
علي في هذا المجال المقال ومثل ما يكون عليه السؤال فيما يقع به
التمييز بين خواطر البال إذ هو مزلة أقدام فحول الرجال فكيف
بالصبية المرضعين الأطفال وما ذلك إلا لما لمح الله أبلغ في
عينيك من الزي الحسن الناشئ عن حسن الظن بي ولست بغبي عن
أريد ذلك العطن فسبحان من أظهر الجميل وستر القبيح بمحض
الكرم وأبرز الوجود وستر العدم وهذا الميدان لا ينبغي لمثلي
الكلام فيه إلا بعد تجرد لأني لجميعه وبلوغي بعضه ما ذي بربه
إلى حقيقة ما تقتضيه ولا يمكن التكلم عنه إلا بنفحة من حقائق
عرفانية وذوق فائح أو ذاتية وفيوضات نبوية ونفحات ربانية

الصفحة الأولى

اللوحة الثّانية

اللوحة السّابعة

اللّوحة قبل الأخيرة

ترجمة مُختصرة للشّيخ المُصَنِّف

سيدي عُبَيْدة الشَّنْقيطي

صاحب هذا المخطوط هو الشيخ عُبَيْدة بن محمّد الصّغير بن أنبوجا الشّنقيطي والمُتوفّى سنة 1284هـ حوالي 1873م ، يُعتبر مِن أعمدة الأئمّة الأعلام في الغرب الإسلامي ، وكتابُه هذا الذي نُحقّقه اليوم يكفي للتّعريف بمَقامه الرّاسخ في المعارف الرّبّانية التي عليها مدار الشّريعة الإسلامية ،

مِن آثاره الكثيرة : - مُنْجِية السّالِم مِن ورود المَهالك – و – المَدَد الباهر في التّمييز بين الخواطر - ، وهو هذا الكتاب الذي نحقّقه ،

قال فيه الشّيخ محمّد الكنسوس :

يا آل أنبوج لا زالَتْ بُدُورُكُمْ تُنير حَيرانًا للأنوار طُلّابًا

ويا عُبَيْدة نِعم الرّأي قُمْتَ به قَد أعْجَبَ النّاسَ ذاك الرّأي إعجابًا

مُداخلات وتأمّلات حول موضوع الخواطِرالإنسانية وما يتعلّق بها

بقلم / س محمّد مُرتاض & سفيان بلحساين

(لمّا تَجلّى العالِم بالعِلميّة أثْبَتَ العالَمَ في المَعلوميّة بالحقائق المعنويّة ، أشياءَ مِثالية ، وبروزها مِن غَيْبِ عِلْمِها لِشاهِدِ معلومِها ، كبروز الخواطر مِنْ غَيْبِ طَمْسِها إلى ظاهر غيبِ حِسّها ، فيكون المعلوم في العالَم وجودُ حقّ قائمٍ وتعلُّقٍ ذاتيّ لازمٍ ، وكذلك الحيُّ في غيبِ حياته إلى مظاهرِ صِفاته ، أَبْرَزَ جميع متعلّقاتِهِ مِنْ مَسْموعاته ومَبْصوراته ، ومَقْدوراتِهِ وإراداتِهِ ، حقائقَ في غيوبِ حضراتِهِ ، ومَشَاهِدَ مُدْرَكاتِهِ وإدراكاته ، وُجوداتِ حَقّ ، ورَقائقَ كلماتٍ ، صِدْقُ الأوّلِ بالباطن ، والثّاني بالظّاهِرِ ، وهذا كلُّه واجبٌ في نفسه ولِغَيْرِهِ ولا غَيْرَ ، ولكنْ هو استدراجٌ لفظِيٌّ للغَيْرِ ، وعلى سَيْرِ الأَضْعَفِ يكون السَّيْرُ ...)

الشّيخ محمّد وَفَا رحمه الله تعالى

(مَنِ اعْتَقَدَ أنّه يَعرف فقَدْ لا يَعْرف أنّه يَعْتَقِد)

صَدَقَ الكِتابُ لِمَنْ به يَتَمَسَّك والبَعضُ منه بِهِ يكون المُشرك

وهو المُبينُ على الذي بِجَميعه يَدْري وليس ببَعضِهِ يَتَمَسَّك

ولقد بَدَتْ صُوَرًا إذا هي فَخُمَتْ بنُزولِها الثّاني لدَى مَنْ يَسْلُك

بلْ ذلك قُرْآنٌ مُحِيطٌ جاءَ في لَوْحٍ هو المَحْفوظُ عمَّنْ يُشْرِك

إنّ العودة لأصل الأشياء لهو أمر حتميّ في حياة الإنسان ، فالعودة مثلا لأصل المشكلة ، تجعلها هيّنةً وأكثر بساطة ، وتعطي من هو مشدود بها حلولا أكثر وقوّة أكبر في تخطّيها ، وكذلك في العودة لأصل النّفس واكتشافها والتّفريق والتعرّف على أنواعها ونزغاتها ، مثلما سبق ذكره في كتابنا (خطوتان للحقيقة) ، وفي هذا التّحقيق الذي نودّ منه أن يكون له الفضل في تأديب النّفوس لدرجة الفائدة الملمّة به ، ووعيا منّا بمسؤوليّة تأديب أنفسنا أوّلا ثمّ تمرير ذلك البرنامج الذي استفدنا منه لأقراننا من الواعين بالكتب القيّمة ، واستجلاء الفائدة دائما بتوفيق الرّحمان ، فإنّ العودة لمعرفة خواطر وواردات النّفس لَهْوَ أصلٌ كبيرٌ في تعريف القلب وتنبيهه في كلّ مرّة ليكون له القدرة بعد التّأديب والتّهذيب ، والسمُوُّ على مكارهه التّي هي في الأصل شهواتُه ، وميوله للمعاصي لطغيان النّفس عليه.

إذا أردنا فعلا أن نغيّر فإنّه سيصير لزاما علينا التّحلّي بحليّ الوعي والتّواصل الواعي مع نفسيّاتنا بالتّعرّف على ما يجولها وما يصولها ، حتّى اذا تعرّفنا على شائبةٍ فيها تقوّينا عليها واستأصلناها صغيرةً ولم ندع لها مجالا لأنْ تكبر فتتقوّى على قلوبنا ، فيطبَعُ الله على هذه المُضغة التي سمحنا لها بسقيها بهوى أنفسنا ، أن تكبر وتتجبّر وتغرس جذورها الصّلبة الخبيثة في تربة قلوبنا وعقولنا الخصبة الطّاهِرة ، فنصير بعدها عبيدا لخواطرها ، لا عبيدا لمن هو أحقّ بالعبادة .

فليس بعجيب أن نرى مِن شبابنا اليوم مَن لا يميّز خواطره ، ولا يعرف مِنْ أين له أن يقَع بالمعصية مع عِلْمِهِ بخطورتها على نفسه ومجتمعه ، بل يأتون الصّلوات ثمّ لمّا ينتهون لا تنهاهم خارج الصّلاة عن الفحشاء والمنكر ، بل والأعجب أن ترى أناسًا يُقال لهم دكاترة أو مشايخ لا يعرفون خواطرهم الرّبّانية مِن الشّيطانية ، لأنّ خاطرهم الوحيد الذي يسمعون به هو خاطر تلك الذكتوراه أو المشيخة ، ودعْنا لا نحدِّثُكَ عن من يسمّون أنفسهم بالمثقّفين والمحلِّلين الإستراتيجيين ، فهُمْ في وادٍ والخواطر الرّبّانية في وادٍ آخَر ، إلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، فما دامت الحَضْرة التي تحتضِن العبد في يومه وليله مواردها شَرٌّ وباطلٌ ، جاءت غالب خواطره وبالتّالي أقواله وأفعاله على شَرٍّ وباطلٍ أيضًا [وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا] ، فإن أردْتَ جعل خواطرك تَرِدُ لك بالخير فغيِّرُ الحضرة التي تحضُر وتداوم عليها وتُسَجِّلُ حضورَكَ فيها طيلة يومك وغيّرْ المكان و البيئة التي تسكُنُ فيها ولَهَا ، و لا تلومنّ إلّا نفسك بعد ذلك ، فإنّ التّحفيز للخواطر محلّه بيئة عيش الإنسان ، بانضمام من تَصْحبهم فيها وهم فصيلتك وأقرانك في تلك الحَضْرَةِ [وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُأْوِيهِ] ، والتّحفيز يُسَرِّع التّفاعل كما هو معلوم ، فإذا أردْتَ تغيير التّفاعل وتجعله لا يتفاعل إلّا بخير ، وهو الخاطر الرّبّاني لا غَيْر ، فَغَيِّرْ التّحفيزَ الذي هو كما قلنا الحضْرة أو البيئة أو الصّحبة ، وعلى قدر التخلّي والتّحَلّي يكون التّجلّي والتّولّي ، [قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ] ،

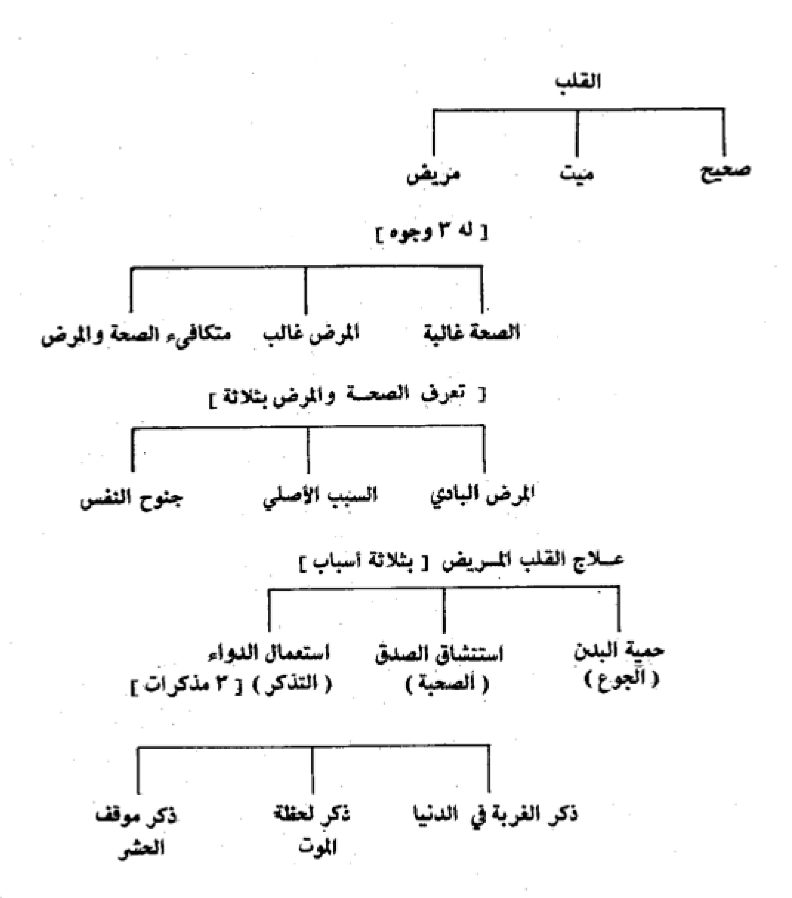
فإنّ التجلّي في أكمل مظاهر التُّقى والعفاف والعمل الصّالح ، وهو أكمل صورة ذاتيّة لهذا المخلوق المكرّم على سائر ما نعلمه من مخلوقات ، لا يكون إلّا بالتحكّم في خواطر النّفس ، فإنّها أوّلُ ذاتٍ مجسّدة للنيّة التي محلّها القلب ، فيسبقها دائما الخاطرُ ، وإنّنا لِنُصحِّح حياتنا يجب علينا الرّجوع للأصل ، ألا وَهِيَ الخواطر ، وإنّنا هنا بصدد ترجمة ما فاض من فائدةٍ من هذا الكتاب ليُسقى ظَمْآنُ الرّوح ، وينالُ منه النّائل جزاءَ تَجاوُزِ مَخاوِفَ نفسه ومعرفة أصل ما يجول فيها ليكون له الكثير من الحلول في كل مرّة لنَتجنّب الكثير منها الّذي لا يَصلح لفطرة الإنسان الّتي فُطِرَ عليها ، والأخذُ بالخاطر الأوّل الصّالح ، فكيف تستطيع أخي القارئ ، أختي القارئة ، أن تميّز بين خواطرك ؟ ، وكيف تصبح مُدَرَّبًا على جَلْب الخاطر الذي يَصْلُح وتتجنّب الخاطر الّذي لا يَصْلُح ؟ وبالتّالي تصبح أفعالك وأقوالك وأحوالك لصالحك ولصالح مجتمعك ، إنّها قضيّة القلب ، فهو الحاضِنُ الرّئيسي لهذه الخواطر ومنه تَنبَع الأفكار ، وبالتّالي تتحدّد خاتمتُك ونهايتُك على ضوء الخواطر التي كانت علي قَلْبِكَ أغْلَب وأنتَ في الدّنيا ، وعلى مِحَكّها أيضًا تتحدّدُ كينونتك وعاقِبَتك ككائن إنساني ، كيف ذلك ؟ ، تابِعْ معنا ...

فإنّه لَمّا قَدَّمْنا في كتابنا (خُطوتان للحقيقة) أنّ قلب المؤمن هو بيت الرّبّ تعالى ، وأثبتنا ذلك بقوله تعالى في الحديث القدسي : (ما وَسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) ، فإنّ القلب هو حضرة الحضرات كلّها ، وبغير ذلك لن يكون قلب العبد محلًّا صالحًا للرؤية الإحسانية في قوله (أنْ تعبد الله كأنّك تراه) ، وسبب ذلك أيضًا أنّ قلب العبد أودَعَه الله تعالى جميع العلوم الإلهية ليُدَبِّر لمَعادِه ، أيْ مِن عالم الأمر أوعالم النّفس ، كما أوْدَعَه العلوم الرّبّانية ليدبّر معاشَه ، أيْ مِن عالم الخَلْق أو عالم الآفاق ، وبتحقيق الخطوتين : عبور عالم الخلق وعبور عالم الأمر ، يصل العبد للحقيقة ، أيْ يصل إلى السّرّ الرّبّاني الذي يَحْفَظ الوُجود ومعناه ، فيطمئنّ قلبُه ، ويُسافِر مِنْ كَوْنِهِ إلى مُكَوِّنِهِ ،

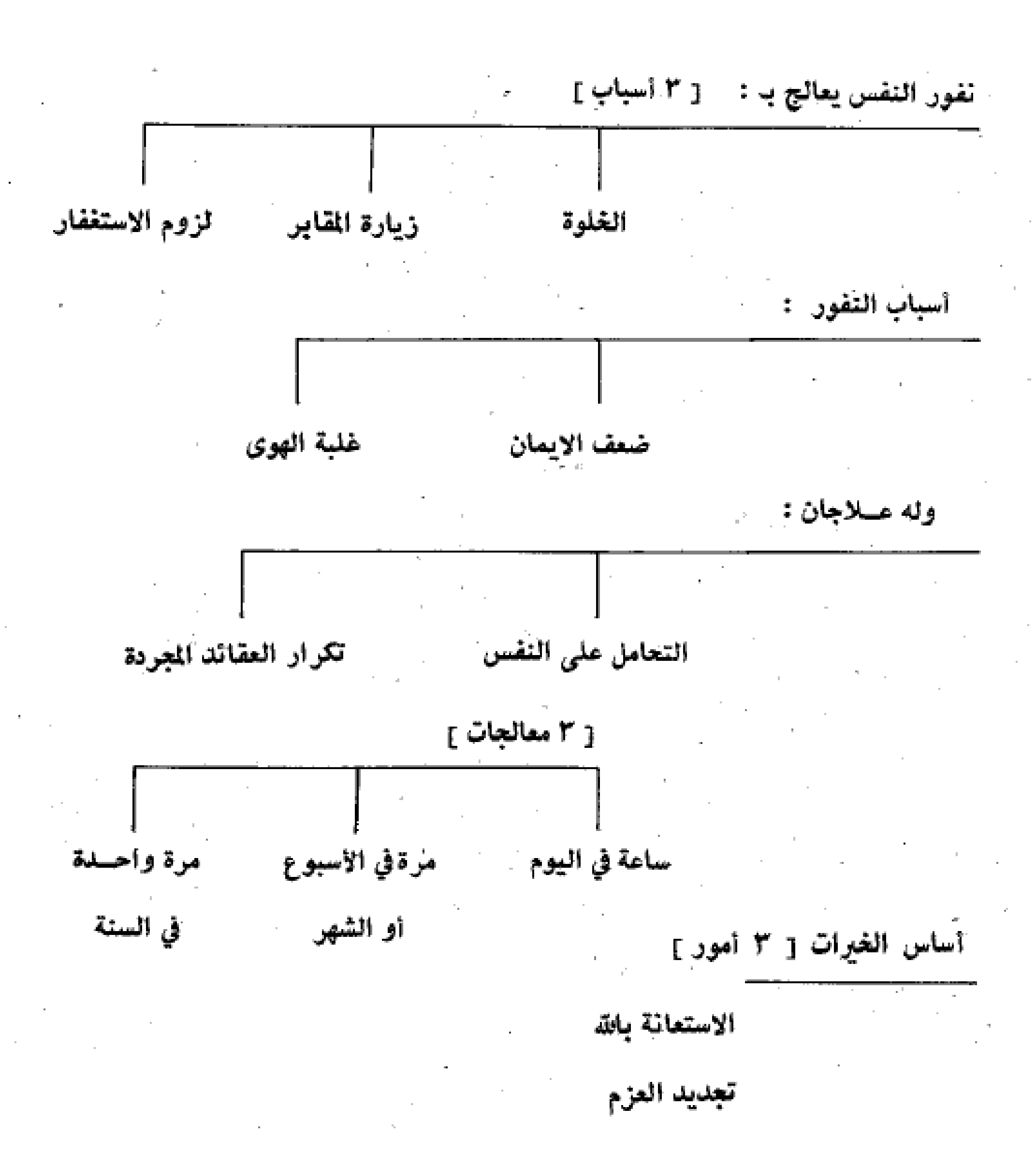
وبذلك يكون القلب اسمًا جامعًا لمقامات عالم الأمر وعالَم الخَلْق كلّها ، وبعبور مقام الإسلام وهو أوّل خطوةٍ ثمّ عبور مقام الإيمان و هو ثاني خطوة ، نصِلُ إلى الحقيقة ، وهي التي يُقالُ لها مقام الإحسان ، ولن تستطيع أخي أن تقطع هاتين الخطوتين وأنت لا تَعرف وسائل هذا السّفر للحقيقة ، وهذه الوسائل هي ما يُسَمّى بالخواطر ، فإن صلُحت سهُل السّفر إلى الله تعالى كما ذكرناه في كتابنا (خطوتنا للحقيقة) ، وإلّا فهو تعب بلا فائدة ،

يقول الحَكيم التِّرْمِذي رحمه الله وهو يُحَلِّل مقام القلب الإنساني : " القلب سُمّي قلبًا لتقلّبه " بين أصبعين من أصابع الرّحمن " وإنّما يُقلّبه مُقَلِّبُه هكذا وهكذا من أجل العبودية والخدمة ؛ لأنّ الخِدمة ألوانٌ ، فمن خَلَقَه للخدمة والعبادة صَيَّرَه ذا قلبٍ ؛ لأنّه خَلَقَه بمشيئته لنفسه ، وسبقت مشيئته فيه ألوانًا ، فإنّما تقلُّبه بمشيئاته لينظر هل يُمضي هذا العبد مع مشيئاته مُسرعا ؟ ، مِن السّرعة كأنّه يُبادِر إرادته محبًّا له " أيْ كمال حبٍّ في كمال ذُلٍّ له تعالى " فإذا بَدَتْ له مشيئته في أمرٍ نسبيٍّ ؛ لحلاوة حبّ مشيئته ، فهو يسعى مع مشيئته في تلك الأمور سيرًا وطَيْرًا ؛ ومَنْ خُلِقَ لهذا اقتضى منه الخدمة والكون بين يديه ؛ لاختلاف المشيئات التي لخالِقِها عليك ، فإنّ سائر الخَلْق من غير الإنسان يعودون إلى الأصول التي منها خُلِقوا ، فمن خُلِق مِن التّراب عاد ترابًا مثل البهائم والطّيور ، ومَن خُلِق مِن نارٍ مثل الشّمس والقمر عاد إلى النّار التي مِنْها خُلِقَ ، وبَقِيَ الآدميّ في أبديّته . فعُبودِيَّةُ الآدميّ أن يُمْضي قلبَه مع مشيئات الله تعالى في جميع الأمور والأحوال والأوقات ، لا يشاءُ إلا ما شاء الله تعالى ، فافتُقِدَتْ مشيئةُ نفسِه بمشيئةِ الله تعالى ؛ لأنّه كان للعبد مشيئة شهوانية حلوة ، فلمّا جاءت مشيئةُ الله تعالى وَجَدَ في قلبه حُبًّا لمولاه ، وأخذ بمجامع قلبه حلاوةُ ذلك الحبّ فلم نَجِدْ لحلاوة مشيئة القلب مساغًا في القلب ؛ لأنّ حلاوة مشيئة الله تعالى قد أخَذَت قلبه فملأتْه " فإنّ في القلب ثغرة لا يسدّها إلا خالص محبّة الله تعالى ، ولن يكون ذلك إلا بعد أن تزول الشّهوات كلّها بما فيها الدّينية والعِلميّة وتبقى شهوة الذِّكر وحدها تتربّع على عرش القلب ، " فلم يبق لحلاوة حُبِّ الشّهوات موضِعًا ، وتلاشتْ في جَنْبِ حُبِّ الله تعالى ، كما أنّ سائر الخَلْق محبوبون له تعالى " ولذلك خَلَقَهم لمّا أَحَبَّ أن يُعْرَف " وجَبَرَهم للتّسخير لبعضهم البعض ولا مشيئةَ فيهم ، فخُلِقْنا لحبّه وخَلَقَ سائر الخلْق لِجَبْره ، فقاموا كُلُّهم في جَبْرِهِ لا يزولون ، وخَلَق الموت مِنَ الشّيطان وجَعَل الشّهوات تُميت القلب إذا كان صاحبها في غفلة عن الله عزّ وجلّ ، فوُضِع في الآدميين مِن تلك الزّينة والشّهوات التي حُفَّت النّار بها ، فوجدْنا أجسادنا موضوعةً بين حبّين وفَرَحَيْن : حبٌّ لله وفَرَح له ، وحبٌّ للنّفس وفَرَحٌ لها ، ومعدن هذا الفرَح بالله والحبّ له في القلب ، ومعدن الفَرَح بالنّفس وشهواتها في الجوف ، إلّا أنّ الفَرَح بالله والحبّ له أصلُه مِن الله تعالى كَبابِ الدّار؛ لِينظر أيّهما يستعمل العبد ويميل إليه ، إلى الحبّ إليه والفَرَح به ، فيعمل لدار السّلام بطاعة الله في أمره ونهيه وقطع ما سواه ، أو يميل إلى الفَرَح الذي بِباب النّار مِن الأفراح والزّينة ، فيعمل لنفسه حتّى يغلب ذلك على قلبه ، فيتعدّى الحدود ويضيّع الفرائض ويعمل بالهوى . " اهـ ،

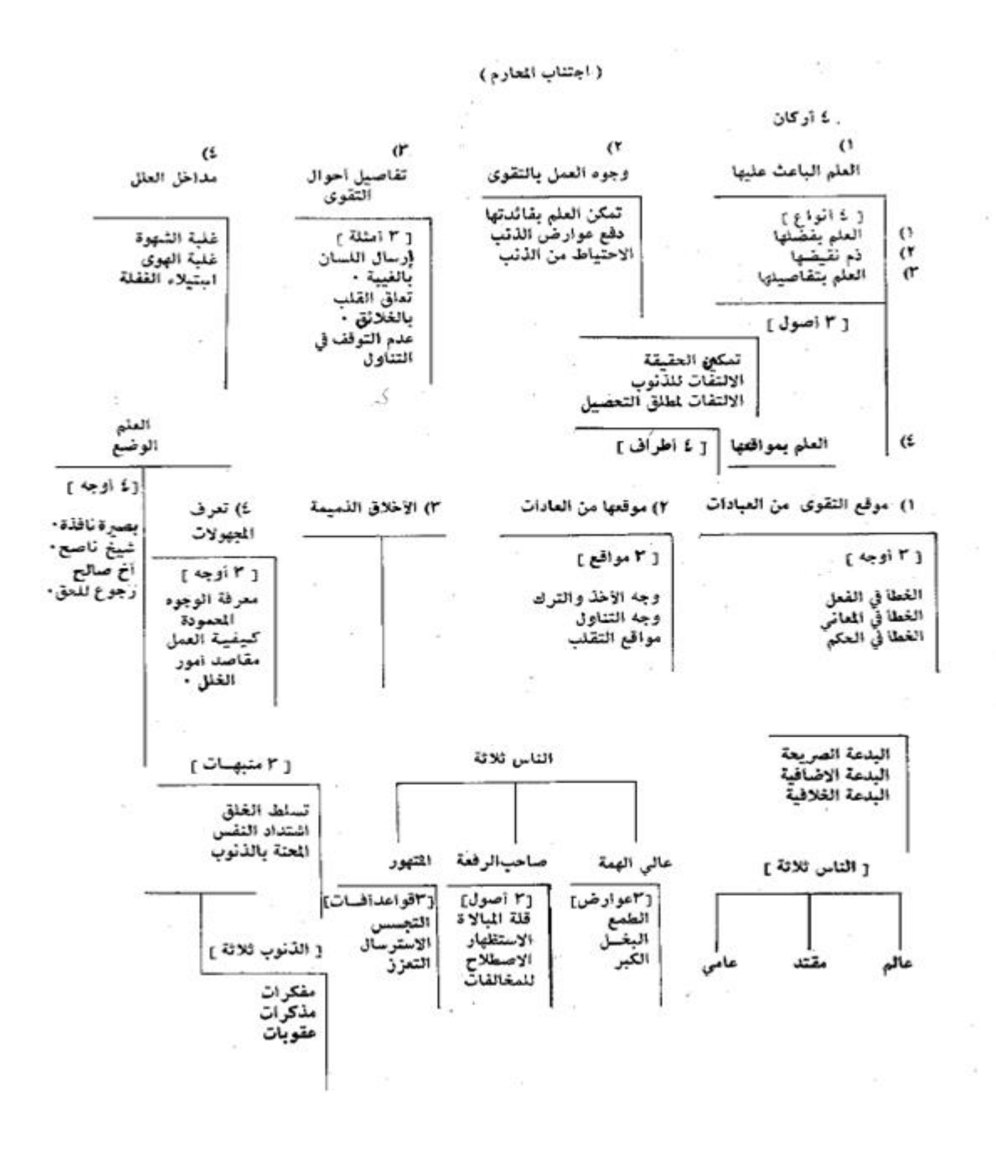
وفي المخطّط التالي قُسِّمَتْ أحوال وأطوارالقلب كما ترى :



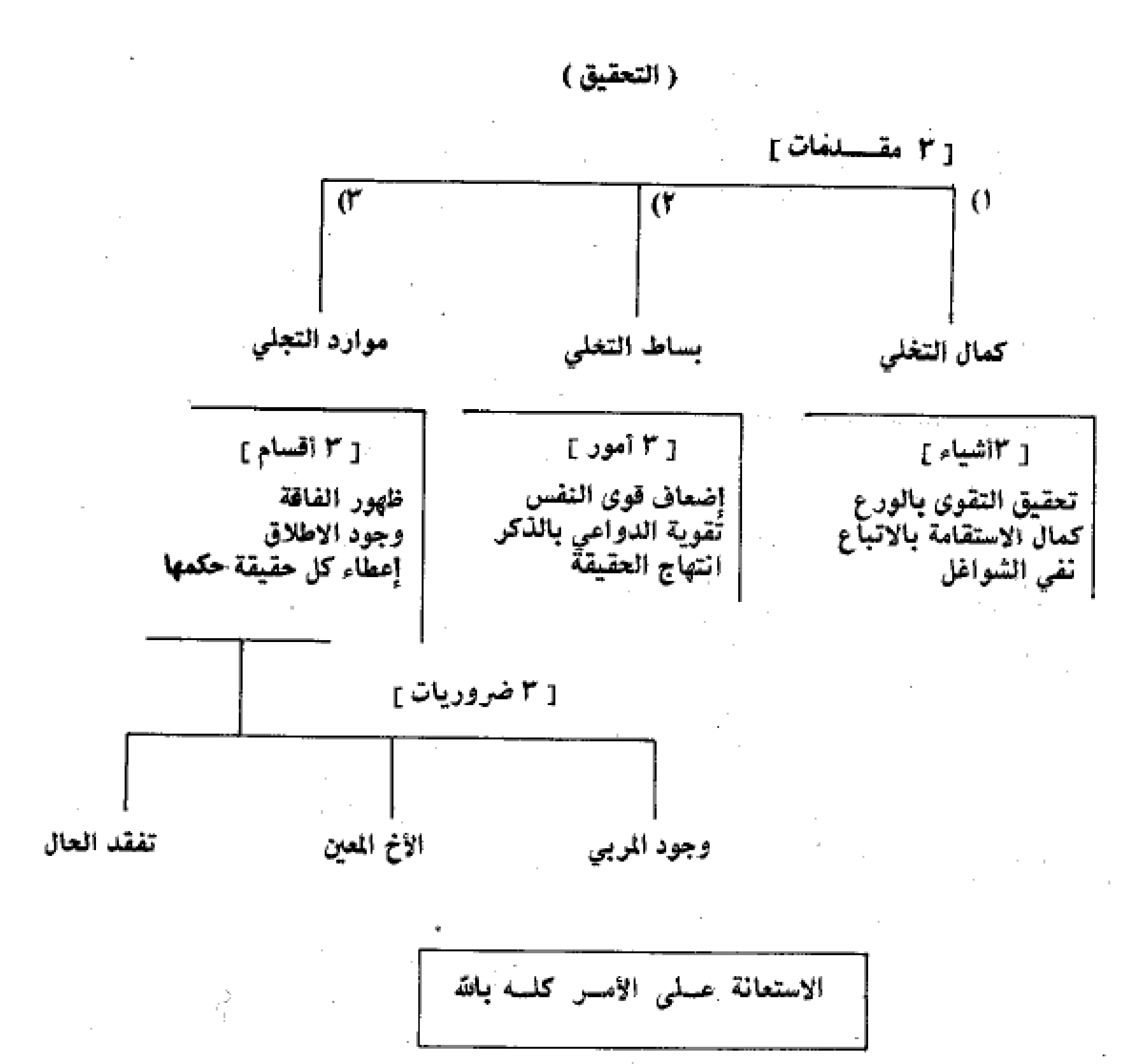
وهنا نوضّح أسباب نفور النّفس عن اتِّباع طريق الحقّ ، مع ذكر العلاج الذي يعود بالفائدة على القلب بالأصالة :



وتمّ التّمثيل لأهمّ عنصر في علاج القلب وهو اجتناب محارم الله تعالى كما يلي :



وهنا نرى طريقة أهل الله تعالى في تحقيق العلاج لأيّ داءٍ عُضال أو تناقض في حياة وهويَّة الإنسان ، والذي لم يكن سببه سوى في القلب الذي هو بيْت الرّبّ ، كما يلي :



قال الشّيخ أبو السّعود بن أبي العشائر : " ما دامت النّفس باقية بأخلاقها وصفاتها فحركات العبد كلّها تأتي مُتابِعةً لخواطرها ، وهي شيئان : إمّا للخَلْق وذلك شركٌ ، أو لراحة النّفس وذلك هوًى ؛ فالشّرك لا يترك التّوحيد يصفو ، والهوى لا يترك العبوديّة تصفو ، وما لم يشتغل العبد بإضعاف هذا العدوّ الذي بين جنبيه لا يَصِحُّ له قَدَمٌ ولو أتى بأعمال الثَّقَلَيْن ، فالرّجل كلّ الرّجل من داوى الأمراض مِن خارجٍ ، وشرع في قَلْع أصولها من الباطن ، فإنّ النّفس إذا استولتْ على القلوب أَسِرَتْها وصارتْ الوَلاية لها ؛ فإذا تحرّكت تحرّك القلب ، وإذا سكنتْ سكن القلب مِن أجلها ، وما دامت في وجه القلب لا يصل إلى القلب خيرٌ . " اهـ بتصرّف ،

وسأل سائلٌ في مجلس وعظ الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله عن الخواطر فأجاب : ما يدريك ما الخواطر ، خواطرك من الشّيطان والطّبع والهوى والدّنيا ، هَمُّكَ ما أَهَمَّكَ ، خواطِرُك مِن جنس هَمِّكَ ،

ماذا تعمل ؟، خاطرُ الحقّ عزّ و جلّ لا يأتي إلّا إلى قلبٍ خالٍ عمّا سِواه ، كما قال تعالى : [مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ] ، إذا كان الله عزّ و جَلّ وذِكْرُه عندك فلا جَرَمَ يمتلئ قلبُك مِنْ قُرْبِه ، وتهرب خواطر الشّيطان والهوى والدّنيا مِن قلبك مِنْ عِنْدِك ، وإذا أعْرَضْتَ عن خاطر النّفس وخاطرالهوى وخاطر الشّيطان وخاطر الدّنيا ، جاءكَ خاطر الآخرة ، ثمّ خاطر المَلَك ، ثمّ خاطر الحقّ عزّ وجلّ أخيرًا (على الترتيب) وهو الغاية ، دعوا كثرة الهذيان والقال والقيل وإضاعة المال ، ولاتُكثروا القعود مع الأقارب والجيران والأصدقاء والمَعارف من غير سببٍ " لأن أكثر ما تجري الخواطر الشيطانية والنفسانية إنما بين هؤلاء الذين ذَكَرَهم ، " فإنّ ذلك هَوْسٌ ، اسْتَحِ من الكرام الكاتبين ، لا تُمْلِ عليهم ما لا يجوز لك إلّا ما يَسُرُّكَ يوم القيامة وتفرح به ، أَمْلِ عليهم التّسبيح وقراءة القرآن والكلام في مصالح نفسك ومصالح الخَلْق ، أَكْثِرْ مِدَادَهُمْ بدموعك ، وقَوِّ أقْلامَهم بتوحيدك ، ثمّ أَقْعِدْهُمْ على الباب وادخُلْ أنت إلى رَبِّكَ عزّ وجلّ ؛ ياغلام ، أنتَ نَفْسٌ وطَبْعٌ وهَوى ، تَقعد مع النّسوان الأجانب والصّبيان ثمّ تقول لا أبالي بهم ، كَذِبْتَ ، لا يُوافِقُكَ الشّرع ولا العقل ، تُضيف نارًا إلى نار ، حَطَبًا إلى حَطَبٍ ، فلا جَرَمَ تَشْتَعِل دار دِينِكَ وإيمانك ، ويْحكم تريدون شيئًا بلاشيءٍ ، أَدّوا الثَّمَن وخُذوا المُثَمَّن مَنْ تَعَنَّى تَهَنَّى " ، وقال رحمه الله في مرض موته : " إذا صَحَّ القلب مع الله عزَّ و جَلَّ لا يَخْلو منه شيء و لا يخرج منه شيء " ، وسأله ولدُه الشّيخ عبد الجبّار وهو في سكرات الموت : ماذا يُؤلِمُك في جسمك ؟ ، فقال رحمه الله تعالى : " جميع أعضائي تؤلمني ، إلّا قلبي فما به ألم وهو صحيحٌ مع الله عزَّ و جَلَّ " اهـ ،

فانظر رحمك الله أهمية القلب ، سواء في الحياة أو عند الممات ، فبِهِ فقط تصلُح أو تفسُد الحياة والممات ؛ ثمّ اعلم أنّ أركان القلب مشيّد على أربعة أعمدة تسمّى الخواطر وهي : الخاطر الرّبّاني والخاطر الشّيطاني والخاطر المَلَكي والخاطر النّفساني ، هي مِدادُ أفكار العباد طيلة يومهم وليلتهم ، وجعلوا معاملات هذا القلب على عشر مدارج : أولها الخواطر ثمّ حديث النّفس ثمّ الهَمّ ثمّ الفِكر ثمّ الإرادة ثمّ الرِّضا ثمّ الإختيار ثمّ النيّة ثمّ العزم ثمّ القصد ، وليس بعد القصد سوى القول والفِعل ، فإنْ تَحَكَّمْتَ في خواطرك استطَعْتَ التَحَكُّم في أقوالك وأفعالك وبذلك تختصر التّعب فيما لا يَعني ، خاصّةً الخاطر الأوّل إذا علمت في أيّ مربَّعٍ تَصنِّفه من أنواع الخواطر الأربعة ، فإنّ الخاطر الأوّل إذاعرفته لا يكذب غالبًا ، لذلك أمر النبيّ عليه السّلام بأن نستفتِ قلوبَنا ولو أفتانا المُفتون لأنّ الخاطر الذي يخطر في بال الإنسان لا يكذب ، لأنّه يَرِدُ مِن حضرة القلب التي هي حَضْرة الرّبّ تعالى ، لا مِن حضرة النّفس الأمّارة بالسّوء ، قال الإمام أبو الحسن الشّاذلي رحمه الله تعالى : " كُلُّ عِلْمٍ تَسْبِق إليك فيه الخواطر و تَتْبَعُها الصّور وتميل إليها النّفس وتلتذّ بها الطّبيعة فارْمِ به ولو كان حقًّا " اهـ ، هذا هو ميزان الخاطر الكاذب بنوعيْه : الشّيطاني والنّفساني ،

وقال الشّيخ عبد الرّحمن العَيْدَروس رحمه الله تعالى : " ومعرفة الخواطر من أهمّ شأن العبد ، لأنّ الخاطر أوّل الفعل ومُفْتَتَحُهُ ، فالأفعال تنشأ من الخواطر لا غير ، والعادة والعبادة التي خُلِقَ لأجْلها العبد هي أفعال ، وهي إنّما تنشأ مِن الخواطر كما ذَكَرْنا على أنّها لا تصير عبادةً إلّا بمقدار صحّة الخاطر بعد تمييزه ، فمعرفة الخواطر هي أوّل الواجبات بعد معرفة الإلهيات والنّبوّات ، حتّى ذهب بعض العلماء رحمهم الله إلى أنّ العِلْم المُفْتَرَض طلبه في قوله عليه السّلام : (طلب العلم فريضة على كلّ مُسْلِمٍ) ـحديث حَسَنٌـ هو علم الخواطر ، قال لأنّها أوّل الفعل وبفسادها فسادُ الفعل ، لكنْ هذا الذي قالَه لا يَتَوَجَّه ، لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أوْجَبَ ذلك على كلّ مسلِمٍ ، وليس كلّ المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك ، وعلى هذا يحمل الوجوب المذكور في حقّ

الخواصّ أصحاب القرائح الصّافية السّالمة " وأيضًا كلّ من له استعدادٌ لطلب هذا العلم الشّريف ، علمُ الخواطر، " ويُحْمَلُ تَوَقُّفُ الأفعال على معرفتها مِنْ حيث التّمييز الكامل في أنّها مقبولة أم لا ، لا مِنْ حيث التّكليف الشّرعي ،

إذا عُلِم ذلك فلتَعْلَمْ أنّ الخواطر بمثابة البَذْرِ ، فمنها ما يُنْبِتُ السّعادة ومِنْها ما يُنْبِتُ الشّقاوة ، والذي يُنْبِتُ السّعادة : الخاطر الرّبّاني إلّا عند غضب الرّبّ ، وخاطر المَلَك ؛ والذي يُنْبِتُ الشّقاوة : خاطِر النّفس إلّا عند الطّمأنينة ، وإلّا فهي التي أوْقَعَتْ الشّيطان في امتناعه من السّجود بِكبرها وعُجْبِها ، وخاطر الشّيطان ، إلّا عند قَصْدِ الكَيْد بتظاهره بخواطر الخير حتّى يَسْتَدْرِج إلى خاطر الشّرّ ، أو يُظْهِرَ خاطر خَيْرٍ لِيَشْغَلَ العبْدَ به عمّا هو أهمّ منه ،

فأوّل خاطرٍ يُعْرَفُ خاطر المَلَك وخاطر الشّيطان ، ثمّ ينتهي بعد ذلك إلى معرفة خاطر النّفس ثمّ خاطر الرّبّ تعالى ، فإنّ أوّل حِجابٍ بين الله تعالى وبين العَبْد هو القلب ، فإنّه أمرٌ ربّاني وهو نورٌ من نور الله تعالى ، وهوالذي تتجلّى فيه حقيقةُ الحقّ كلِّه حتّى إنّه لَيَتَّسِعُ لجُمْلة العالَم ويُحيط به وتتجلّى فيه صورة الكُلّ ، وبسبب هذا النّور يُظْهِرُ لصاحِبِه الوجود كلّه على ما هو عليه . " اهـ ،

فإذا علِمْنا أنّ الحواسّ تستمدّ جميع ممارساتها من القلب كما تفعل مُجْمَل القوى العقلية والنّفسية ، فإذا تركّزت النّفس والعقل بالظّاهر والمَظَاهِر وتجاهلت الباطن والمعاني ، كانت في مرحلة الرّان ، فيُغَلِّف هذا الرّان مرآة القلب فيصبح غافلا ليس فقط عن الأوامر الإلهية ، وإنّما أيضا لن يكون له خبر عن الحواسّ ، فتنطلق في المعاصي لأنّ القلب المُشْبع بالرّان ميّتٌ ، فجاءت الحواسّ حينها بأفعال الموتى والأنعام ، [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ] ، فلا يميّز وقْتَها بين الوارد والخاطر الرّبّاني والوارد والخاطر الشّيطاني [الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا] ، وتشَكّل هذه الغفلة غِطاءً و حِجابًا معرفيًّا بين الباطن الإنساني وظاهِره ، وذلك هو العائق الحقيقي في رحلة الإنسان نحو الحقيقة [فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] ،

فإنّ القلوب هي كتابٌ مسطور لكلّ ما فيه من الخواطر والعلوم ، وله طَبَقات نظير أوراق المُصْحَف ، وكلّ ذي قلبٍ لا يخلو مِنْ قِراءة مَصْحفه أو كتابه ساعةً ، إمّا مارًّا عليه أو متردّدًا ، أعني لا بدّ أن يكون متردداً في خاطرٍ واحدٍ أو تمرّ عليه خواطر شتّى ، ربّانية وشيطانية ، فيتطلّع الإنسان إلى مَصْحَفِ الخواطر الدّاخلة لقلبه وكتابِهِ ، وينظر في أيّ صفحةٍ هو وفي أيّ آيةٍ هو منها ، وهذا لا يكون يا أخي إلّا بعد تحصيل البصيرة الفراسية التي ذكرناها في كتابنا (خطوتان للحقيقة) فراجعه ،

ثمّ أصل حصول هذه المنازل التي بها تتميّز الخواطر ، هو تفريغ الخاطر النفسانيّ مِن كلّ شاغلٍ يشغلك عن تحقُّقك بما تسمع أو ترى أو تتكلّم في أيّ مقامٍ كُنْتَ من العبادات والمعاملات ، وهو تحقيق الشّرط الثّاني المذكور في كتابنا (خطوتان للحقيقة) وهو السّماع ، والمذكور بقولنا : خشوعٌ باستماع ، فإنّ الخواطر إذا لم تتفرّغْ للسّماع لم تتفرّغ الجوارح للخشوع ، وهو التخلّق بالأخلاق الإلهية ، وإذا لم تتخَلّق لم تتحقّق ، ومن لم يتحقّق فقد تزندق ، والتّحقّق له مقامات متفاضلة وهو الذي أردناه بالمنازل التي بها تُمَيّزُ يا أخي خواطرك في يومك وليلك ،

فاسْعَ يا أخي في تفريغ الخاطر الوحيد الذي تملكه فهو مِنك وإليك ، وهو الخاطر النفساني ، فَفَرّغْهُ للسّماع الرّبّاني المُراد منك في أيّ مكانٍ كنت من خلاٍ أو ملاٍ ، إن لم يضُرّ الملأ ، وتكون من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ، لحسن أخلاقهم ، وهي لحُسن خواطرهم ، فهي كلّها أو جُلّها خواطر

ربّانية ، لا شيطانيّة ولا نفسانيّة ، فإذا أصبحت خواطر القلب ربّانيّة صَحَ لصاحبِها السّماع الرّبّاني لكلّ شيء في الوجود ، فلا تأتي نتائجه إلّا على وجه الصّحّة والقَطْع ، لأنّه سَمَاعٌ بالشّرع لا بالطَّبْعِ ، فيكون بيْن ذِكْرٍ بإجتماعٍ وخَشوعٍ باستماعٍ وتَحَمُّلٍ بإتّباعٍ ، وبذلك فقط يقطع عالَم الأمر ؛ أمّا لو بقيت خواطره شيطانية على وجه الغفلةِ والشّهوةِ ، فتلك النّاصيةَ الكاذبة الخاطئة ، ويصبح كحالِ منْ قال فيه الحقُّ تعالى [يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ] ولن يقدر صاحبها على قَطْع عالَم الخَلْق فما بالك بعالَم الأَمْر ، فيبقى محجوبا بعالم المظاهر طول حياته وهو يَحْسِب أنّه على شيءٍ ، ودُونه عالم المعاني وعالَم الأواني ، كما قِيلَ :

إذا كان ما تَنْوِيه فِعْلًا مُضارِعًا *** مَضى قَبْلَ أنْ تُلقى علَيه الجَوازِمُ

وحتّى تستطيع بسهولة تمييز خواطرك ، فأدلّك على إحدى أسهل الطّرق لذلك ، وهو لَسهلٌ على مَنْ سَهَّلَ الله تعالى عليه ، وهو أن تميّز الحضرة الأسمائيّة والأفعالية التي تُداوم تجليّاتها عليك لتسجيل دوام حضورك وانطوائك فيها أكثر مِنْ غَيْرِها ، فهي شاهِدةٌ عليك إلى يوم الدِّين ، فأنت لن تفهم فعل الله تعالى فيك وهي المُسَمَّيات إلّا بتمييز حضرتها الأسمائية وهي الخواطر لا غيْر ، فمثلًا في عمَلِكَ أو وظيفتك تَفَكَّرْ في حَضْرَةَ اسمه تعالى الرَّزّاق الذي هو اسْمُهُ قبل المُسَمَّى ، والفعل الذي هو العمل أوالوظيفة الذي هو من أسباب رِزْقِه ؛ ثمّ التّفكير في حضرة الصّفات لتفهم حضرة الذّات ، وهي هنا صفته تعالى الرّازق والتي أعارها وألبسها على صاحب عملك مثلًا ، صفةً لا ذاتًا ، فكلّما جاءتْ خواطرك بعد هذا من حضرة الذّات ، وهي الأصل للصّفات وللأسماء ، كلّما كانتْ على الصّحّة والقوّة فتكون خواطر ربّانية ومَلَكيَّة ، وتستفهم حضرة صفة الرّازق بكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه وسيرته عليه السّلام ، باستدعاء شواهد اسمه الرّزّاق في تلك السّيرة العَطِرة ، وتعيشها كما عاشه الرّعيل الأوّل من السّلف الصّالح على قدر تمكّنك مِن بَرْدِ اليَقين الناتج عن التشبّع بوحي الكتاب والسّنّة الصّحيحة ، فإن حَقَّقْتَه كما تقدَّم استطعْتَ ضَبْط الواردات الرّبّانية الإتبّاعية ، وتصبح خواطر نَفْسِك كلّها خواطر ربّانية ، فلا يكون للشّيطان عليك سبيلٌ ، ولا يبقى بعد ذلك سوى واردات وخواطر مِن بقايا الهَوَى ، تَدفعها بما يَرِدُ عليك مِنْ خواطر ربّانية ومَلَكِيّة ، ويصبح قلبُكَ كعبةً للحقّ ولقلوب أهل الحقّ ، وأمّا الباطل وأهل الباطل وخواطرهم فلا يكون لهم عليك سبيلٌ ، بل تصبحُ من الذين يهدونهم بهذا الخاطرالحقّ وبه يعْدِلون ، فتكون خواطرك وارداتُك كلّها خاطرا واحِدًا هو خاطر الواحِد الأَحَد ،

فالعبرة في مُعاملات الخواطر بخصوص السّبَب لا بعموم اللّفظ ، وهي أن تَتَبَيَّن من أيّ حضرةٍ أسمائيّة وَرَدَ هذا الخاطر؟، وهي الحضرة الأسمائيّة التي يُضَلُّ بها كثيرًا ويُهْدى بها كثيرًا ، قَبْلَ الحضرة الأفعالية ، والعبرة أيضا بحضور القلب بالذِّكر مع خواطر ربّه دون خواطر نفسه أو شياطينه ، ليشعر العبد بَعْدَهَا بهذا الحضور القلبي أنّه في كل لَحْظَةٍ و حِينٍ في حَضْرَة الله الكريم لآ غَيْر ، فيعبده كأنّه يراه ، فانتبه ،

وحينها فَقَدْ طَرَدَ الحقُّ تعالى عنك كلّ خِطابٍ خارج قَلْبِك الذي هو بَيْتُهُ منه يَرِدُ هذا الخطاب الحقّ حتّى لاتَحْجبُك التّجلّيّات الشّيطانيّة ، خاصّة تلك المتنكّرة في صورةِ تجلّيّاتٍ رحمانيّةٍ ، وهي مادّة الرّان كما ذكرنا ، وصار لك الخِطاب مِنْ نَفْسِك على مقامها بين راضيةٍ ومرضيّة ومطمئنّة ، منزلةً بعد منزلةٍ وحالًا بعد حالٍ [طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ] ،

فقلب العبد هو محلّ الإلقاء الإلهي مِن خيرٍ أو شرّ تُسَمّى بالخواطر ، وتسمّى أيضا بالواردات [قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ] ، وهذا الإلقاء على القلْب جعله كلَوْحٍ للمَحْوِ والإثبات الذي ذكره الحَقّ تعالى بقوله

: [يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ] ، فيخطر للعبد خاطر أن يفعل أمرًا ما من الأمور ، ثمّ ينسخه خاطر آخر فيمحي الأوّل ويَثبّت الثّاني ، وهذا مادام العبد مهتمًّا لخواطره ، محجوبًا عن كشف الإلقاء الإلهي الخاصّ بعباده الصّالحين ، فإذا أُيّدَ بالعصمة إن كان نبيًّا أو بالحِفظ إن كان عارِفًا ، عاد قلبُه لوحًا محفوظًا عن المحو ، فيمحو بحسنات الخاطر الرّبّاني كلّ سيّئات الخاطرالشّيطاني فيدمغة فإذا هو زاهقٌ ، وإنّما وقع المحو في ظاهر الكون وبقيت حكمته في القلب سرًّا بين العبد وربّه :

وتنزّلَ الرّوحُ الأمين لقلبِه   يوم العروبة وانقضَتْ أوطاره

إنّ الفؤاد مع التنزّل واقفٌ   ما لم يَصِحْ إلى النّزيل مَطَارُهُ

مَنْ كان يشْغله التّكاثُر لم يَكُنْ   يُغْنيه يومَ وُرودِه إكْثَارُهُ

مَنْ يَنْتَمي لحقيقةٍ يَصْبِرُ على   بَأْسائِها حتّى يَرى مِقْدَارَه

شُهَدَاءُ مَنْ قال الوجودَ شِعارُهُ   أَمْرٌ يَعْرِف شَرْعَهُ ودثارَه

ما نالَ مَنْ جَعَلَ الشّريعةَ جانِبًا   شيئًا ولو بَلَغَ السّماءَ مَنَارُه

الحالُ إمّا شاهِدٌ أو وارِدٌ   تَجْري على حُكْمِ الهُدى آثارُه

فإذَنْ القلبُ إذا توجّه إلى شيءٍ فلا يَسَعه غير ما توجّه إليه ، وإذا كان الأمر على هذا فلا كلفة في دَفْع ما سوى الله تعالى عن القلب بدون تقديره تعالى وحده ، لأنّ الله تعالى يُعْدِمُ بإرادته ويوجِدُ بقُدْرَتِهِ ، فاجعلْ شاهِدَ القلبِ الحقَّ تعالى ، يَذْهَبُ ما سوى الحَقُّ تعالى ، فرؤية القلب غيبًا بغيبٍ ، ورؤيةُ العين حِسًّا بحِسٍّ ، ومشاهدة القلب التي تنتج عن مراقبة ومتابعة ومجاهدةِ الخواطر هي رؤيةٌ لا مشاهَدةٌ ، والمشاهدة في الدّنيا كأنّك تراه ، لا أنّك تراه ، فالمشاهدة القلبية بين الحِسّ والغيب ،

والذي يمنع الخَلْقَ مِن رؤية الحقّ تعالى هو كونُهم في قبضته ، فهم في ظلمة القَبْض لا يبصرون ، وإذا بسط يده رأوا ،

فآدم في اليد مقبوضٌ عليه حين اختار اليمين وكلا يدي ربّه يمين ، وليس في اليد وفي آدم الذي اختار ، والذي ليس في اليد هو عين آدم المقبوض عليه ،

وبتزيين الخواطر ضلّ مَن ضَلّ واهتدى من اهتدى ، فالزّينة هي الحاكِمة على العبد بتَعَشُّقِ حاله ولذّتِه بما هو فيه ، لأنّه بطبعه يتطلّبها ، ولو عاين وجه الكراهة في حاله ولم يُزَيَّنْ له ذلك ما أقْدَمَ على مكروهٍ ، والله حكيم عليم ،

وقال الإمام شيخ الإسلام ابن تَيْميّة رحمه الله تعالى : " جَعَل الله القلوبَ ثلاثة أقسامٍ : قاسية ، وذات مَرَضٍ ، ومُؤمنة مُخْبِتة ، وذلك لأنّها إمّا أن تكون يابسة جامدة لا تَلين للحقّ اعترافا وإذعانا ، أو تكون ليّنة بذكر الله ، فالقلب الأول هوالقاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر ، لا ينطبع ولا يُكْتَب فيه الإيمان و لا يَرْتسِم فيه العِلم ، لأنّ ذلك يستدعي مَحَلًّا لَيّنًا ، والثّاني لا يخلو إمّا أن يكون الحقّ ثابتًا فيه لا يزول عنه لقوّته مع لينه ، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال ، فالثّاني هو الذي فيه المرض ، والأوّل هو الصّحيح اللّيّن ،

وذلك أنّ القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلًا ، فإمّا أن تكون جامدةً يابسة لا تلتوي ولا تبطِش ، أو تبطِش بعنفٍ ، فذلك مَثَل القلب القاسي ، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة وهي مثال للقلب المريض ، أو تكون باطشة بقوّة ولِين فهو مثل القلب الرّحيم العليم ، فبالرّحمة خَرَجَ عن القسوة ، وبالعِلم خَرَجَ عن المرض ، فإنّ المرض من الشّكوك والشّبهات ، ووصف الحقّ تعالى كلّ من عدا هؤلاء بالعلم والإيمان والإخبات ، وفي قوله [وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ] دليلٌ على أنّ العلم يدلّ على الإيمان ، وليس أنّ أهل العلم ارتفعوا عن درَجة الإيمان ، كما قال تعالى [وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ] " اهـ ، وبقي اشتباهٌ للخواطر الرّبّانية على قلوب أهل العِلم ممّا يُسمّى بالمُتشابه والتّأويل ، وتأويل تلك الآيات المتشابهات ليس سوى تأويل للخواطر ابتداءً ، فينسخ الخاطرُ والوارد الرّبّاني ما يُلقيه الشّيطان في الأمنيّات بخواطره الشّيطانيّة ، وذلك قوله تعالى : [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] ، ثمّ اسمع نتيجة الخاطر الشّيطاني المُلْقى في قلوب أهل الأمانيّ والغفلة : [لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ] ، ثمّ يُحْكِم الله آياته في قلوب أهل الوارد الرّبّاني ، وجَعَلَ المُحْكَم هنا ضدّ الذي نَسَخَه الله تعالى مِمّا أَلْقى الشّيطان ، فافهم وانتبه ،

وقال الشّيخ أحمد ابن يونس المَقْدسي المَدَني رحمه الله تعالى نقلًا عن بعض المشايخ كالإمام السُّهْرَوَرْدي صاحب كتاب (عوارِف المعارِف) : " العبد يعرف الخواطر التي تَعْرِض له في باطنه ويميّز بينها بأن يَعْرضها على العلم والأمر والنّهي ، فإن صحّ على حدّ العلم فهو خاطر صحيح ، وإن لم يصحّ فهو باطل ،

ثمّ أَلْطَفُ مِنْ هذه المسألة وهي أنه ربّما يكون العبد على حالةٍ شريفة يريد الشّيطان أن يردّه إلى حالةٍ أدنى من تلك الحالة فيخطر بباله تلك الحالة ، فإذا عرض ذلك الخاطر على العلم والأمر والنّهي فيكون صحيحًا ولكن يكون مِن الشّيطان ، فكيف يعرفه العبد ؟ وقَلّ مَنْ يعرفه من النّاس " ، وحتّى ترفع هذا الحرج يا أخي فعليك بإيجاد الشّيخ المربّي كما ذكرنا في مخطّط سابق لمّا تطرّقنا لخطوات علاج خواطر القلب فراجعه ، فإنّ الله تعالى ما جعل علينا في الدّين مِنْ حَرَجٍ ؛ ثمّ ذكر الشّيخ إشارة خفيّة لهذا العلاج بقوله : " والجواب عنه إنّه إنّما يعرِف العبد ذلك الخاطر بتوحّشٍ يعود عليه منه وَحْشَةٌ " كما ذكر الشّيخ عبيدة الشّنقيطي أيضا كما سترى في النّصّ المحقّق ، " فإذا ورد على القلب ضَرَّ به فَأَوْجَعَه كالطّعام الذي لا يكون فيه مِلْحٌ ، فيُعلم بالوحشة والسّماجة أنّه ليس من الحقّ تعالى وأنّه من الشّيطان ، وأنّه خاطرٌ غير مَرْضِيّ وإنْ كان عادَ بِه إلى ما هو طاعةٌ ، مثل أن يأمره بالحجّ أو برّ الوالدين وإنّما قصد أن يرُدّ العبد من الحال الأعلى إلى الحال الأدنى ليفسد ما هو عليه ، فيكون هذا الخاطر الذي من الشّيطان ضِدًّا لما هو به العبد من حالٍ أعلى ، وربّما يصوّر الشّيطان للعبد أنّ تلك الحالة أعلى من حال العبد الأولى ولكن لا تكون ضدًّا لِما به العبد من الضّيق والوحشة ،

فإن كان الخاطر من الحقّ تعالى وجَد السّكينة مع ما عليه العبد من الإنقطاع إلى الله تعالى فيُؤيِّدُه فيتّفقان كشخصين التقيا متّفقين في الصّفة والهِمَّة يلتقيان ويتوافقان ، فإن كانا ضِدَّيْنِ في الحرفة تَزاحَما وتنازَعا ، كذلك العبد إذا كان على خاطرٍ مِن الحقّ لِما معه مِن البضاعة ورأس المال إذا ورد عليه خاطر الشّيطان مَيَّزَ بينهما فيجِدُ في نفسه ضدّيّة الوارد عليه ،

فالسّكينة تُميّز الضّدّيّة بين الوارد مِن الشّيطان وبين جامعه مِن الحقّ ، فتلك الضّدّيّة لما هو فيه ، تَحكم أنه من الشّيطان وليست مِن الحقّ ،

ثمّ هذا الخاطر من الشّيطان يكون بهذه الحلاوة وربّما يكون أشدّ حلاوةً مِن الخاطر الذي من الحقّ في الصّورة ، وهو الذي مِن الشّيطان يَلوح فلا يعود للعبد منه شيءٌ مِن فائدةٍ في دنياه وآخرته " فهو حَقٌّ أُرِيدَ به باطل ، " فإذا لم يكن للعبد من الحقّ تعالى هذه الأحوال وأورد عليه الشّيطان لا يَشُكّ أنّها من الله تعالى للصّورة الصّالحة " كما سترى في النصّ المحقّق من كلام الشّيخ عُبيْدة الشّنقيطي ، " وإنّما يعلم أنّها مِنَ الشّيطان لِلضِدّيّة التي بينها وبين ما عِنده من الحقّ الذي هو عليه ، ولِمَا يعود إليه مِن الوحْشة كما سَبَق ، فلو لم يَكُنْ له شَيْءٌ مِنَ الحقّ لم يَعلم أنّ هذا مِنَ الشّيطان أم مِن الحقّ تعالى ، ولكن إذا قَوِيَ في الذّكْرِ يترقّى فيُصْبِح يسمع صوت وارد الشّيطان وصوت وارد الحقّ تعالى ويميّز بينهما " بحسب درجة قوّته في الذّكْر وعلى قَدْرِه تكون درجة قربه من ربّه ، فبالذّكر فقط يستطيع التمييز بين واردات الحقّ وواردات الباطل كما يميّز المرءُ بين الصّوت الحَسَن مِن الصّوت القَبيح ، " فإذا وَرَدَ مِن الشّيطان خاطرٌ يَجِدُ الضِدّيَّة بينه وبين ما عِنْدَه مِن الحقّ " اهـ ، فكما أنّ الحَسَنات يُذْهِبْن السّيِّئات ، فكذلك السّيِّئات يُذْهِبْنَ الحسنات ، فاحذر يا أخي ،

و قال الشّيخ عليّ الخوّاص رحمه الله تعالى في التّمييز بين خاطر الحقّ تعالى وخاطر المَلَك : " الفرق بين خاطر الحقّ وخاطر المَلَك هو أنّ خاطر الحقّ تعالى لا يكون فيه أمرٌ و لا نهيٌ أبدًا إذ قد فَرَغَ تعالى مِنَ الأوامر والنّواهي على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم ، فكلّ خاطرٍ تجد فيه أمرًا أو نهيًا فاعلم أنّه خاطر مَلَكٍ كريمٍ ، فتحَصَّلَ لنا بعد هذا أنّ خاطر الحقّ تعالى إنّما يُعطيك المَعَارِف الإلهية ليكشِفَ لك عن الأمور الغيبيّة التي جَهِلْتَها من الكتاب والسّنّة ، ويكون سمعك وبصرك ويدك إلى غير ذلك . " اهـ ،

واعلم أنّ الوارد مِن الحقّ إلى الخَلْق هو على ما هُمْ فيه لا على ما هُوَ تعالى فيه ، لأنّ ما هو فيه أَحَدٌ بلا أَحَدِيَّة ، وما هُمْ فيه مَحَضُّ الإثْنَيْنِيَّة ، فتكون الخواطر كلّها السِّرّ منها جَهْرًا ، والإخفاء سِرًّا ، وعَمادُ هذا السِرّ والإخفاء هو الصّورةُ روحًا والرّوح صورةً ، فافهمْ [وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى] ،

فإنّه لم يَخرُجْ من القلب شيءٌ سواه تعالى ، فلم يُؤْتَ أحَدٌ شيْئًا إلّا مِنْ قَلْبِه ، ولم يصدعْ صادعٌ إلّا قلبُك ، فمنْ وَجَدَ الصّادِعَ جُمْلَةً بالحقّ فقد وَجَدَ المفتاح ، ومنْ وَجَدَ المِفْتاح وَجَدَ الفَتَّاحَ ، ومَنْ وَجَدَه لمْ يَفْقد شيئًا ، لأنّ حاجَتَه في قلبه أَبَدًا ، وقَلْبُهُ بَيْتُ رَبِّهِ أَبَدًا ، فعادَ الخاطر الرّبّانيّ أصيلًا ، وعادَ الخاطرُ الشّيطانيّ دَخيلًا ، (أبيتُ عِند ربّي يُطعِمني ويَسقيني) ،

فإنّ الحُجَجَ والأدلّة متعلّقةٌ بساقِ القلب ، فمَنْ أُكْرِمَ بالنّورالإلهي الذي هو الخاطر الرّبّاني في قوله تعالى : [أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ] أُنْزِلَتْ عليه الحُجّة مِن ذلك النّور ، ومَنْ أُهِينَ أُمْسِكَتْ عنه ، كما قال تعالى : [وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ] ، قال الشّيخ العلّامة عبد الحميد ابن باديس رحمه الله تعالى : " ذَكَر الحقّ تعالى أنّ القرآن هو شفاءُ المؤمنين " فالقرآن هو أشهر وأقوى واردٍ ربّاني في الوجود فكان فِعلًا شفاء لما في الصّدور ، وما في الصّدور هي القلوب محلّ نزول هذه الخواطر والواردات ، " كما ذَكَرَ سَبَب زيادة هذا القرآن للكفّار خسرانًا " ومرضًا بالخواطر الشّيطانية والنّفسانية ، " وهو قوله تعالى : [وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا] أيْ السّبب هو الإعراض عن النّعمة ، " وهي نعمة نزول الخواطر الرّبّانية ابتداءً ، " ثمّ بسبب اليأس من الرّحمة " وهذا عند نزول الخواطر الشّيطانية ابتلاءً ، فتأمره

بالفحشاء وتَعِدُهُ بالفقر فيخاف ويرتبك ، ويستنجد بخاطره النّفسانيّ الأمّار بالسّوء وهو الوحيد الذي يملِكه ، ليخفّف عنه تعب تعاطيه مع الخاطر الشّيطاني حتّى ينسى ذلك التّعب والكَبَد ، فيتعاطى المخدّرات والمسكرات وغيرها ، وينسى أنّ الخاطر الرّبّاني لَوَاقِعٌ ، مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ، لأنّ حضرة وُرودِه هي من حضرة اسمه تعالى القهّار ، والتّسليم معه أَسْلَم ، والتّحاكم معه بالشَّرْع أقْوَمُ وأَحْكَمُ ، [أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ] ، " إذْ مَنْ أعْرَضَ عن شيءٍ ثمّ انقطعَ وهو يتيقّنُ بخطئه فإنّه لن ينفعه حِينها ، فييأس ويُحاوِل رَفْعَ معنويّاتِهِ بمهدّئاتِ الشّيطان ، فهذا تَرَكَ فتُرِكَ ، والجزاء من جنس العَمَلِ ، عَكْس مَنْ قَلْبُهُ مَرْبوطٌ بالحقّ تعالى إذْ الجِسْرُ سَالِكٌ مَفْتوحٌ " اهـ ، فافهم وانتبه ، فلئِنْ تَحَوَّلَتْ هذه الخواطر على قلبك بما يَسُوؤُكَ أو يَسُرُّك ، فاعلم أنَّ ربَّها لمْ يَتَحَوَّلْ ،

الإحسان رأس القلب ، والإيمان وسطه ، والإسلام قَدَمُه ؛ فإن سَلِمَ الرّأس دَلَّ على صِدْقِ القَدَم ، ومن عكَس انتكس ، ورأسُ السّلام والإسلام هو إسلامُ وسلامة الخواطر، [وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقلبه] ،

ولولا تضارُب الخواطر الإنسانيّة لَما انقسم الوجودُ الواحد اثنيْن ، ومِنْ كلّ زوجين اثنيْن ، ولَمَا تشتَّتَ المجموع فريقيْن : [فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرُ] ،

واعلم أن الطّريق إلى الله تعالى على جادة المحنة أقرب وأغلب مِن جادة المنحة ، لذلك يبتلي الله تبارك وتعالى العباد جميعًا بالخواطر الشّيطانية والنّفسانية ، كما قال تعالى في سَبب ذلك : [وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ] ، وقال أيضًا : [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ] ،

وقال الشّيخ عبد القادر الكيلاني بلِسانِ الوارد الرّبّاني ، موعظةً لأصحاب الوارد الشّيطاني : " أيّها العزيز أَعْرِضْ عنْ دَواعي شهواتِ [وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ]

واخرج من غفلة مواطنِ [وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا]

واجتنب صحبةَ أهلِ قسوةِ [فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ]

واستمعْ بسَمْعِ قلبك مِنْ مُنَادِي [اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ]

ولَبِّ نِداءَ [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ]

وانتبهْ مِنْ نَوْمِ غُرُورِ [وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ]

و تَنَبَّهْ بتَنْبِيهِ [أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى]

واسألْ عنْ أخبارِ مَقاماتِ أهلِ حضورِ [رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ]

وسافِرْ إلى كَعْبَةِ المقصود بقَدَمِ الرَّأسِ في بادِيَةِ انْقِطَاعِ [وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً]

على راحِلَةِ تَفْويضِ [وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ]

بزَادِ تَجْريدِ [قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ]

مَعَ قافِلَةِ أهْلِ صِدْقِ [وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ]

و اعْبُرْ عَنْ مَسَاكِنِ زَخارِفِ دُنْيَا [إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا]

واسْلَمْ مِنْ سُبُلِ مَهَالِكِ فِتَنِ [أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ]

واسْتَقْبِلْ مِنهاجَ مَسَالِكِ هُدَى [إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا]

وادْعُ بِلِسَانِ اضْطِرَارِ [أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ]

بالتضَرُّعِ والعَجْزِ قَائِلًا : [اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ]

حتّى يُواجِهَكَ مُبَشِّرُ عِنَايَةِ قَدِيمِ [أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ]

ببشارةِ تَحِيَّةِ [سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ]

ويَحْمِلُكَ على بُرَاقِ [نَصْرٌ مِّنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ]

ويَدْعوكَ إلى جَنّاتِ نَعِيمِ [فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ]

فيَهُبُّ عليك نسيمُ [إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً]

ويتجلّى مُنَادِي الأُنْسِ بكلامِ [وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً]

و يطنِبُ في ديباجةِ [فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً]

فتذوق نواظرُ عيونِ البصائرِ [وَخَرَّ موسَى صَعِقاً]

فلمَّا عايَنَتْ آثارَ مُشاهَدَاتِ [وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ]

اعترفَتْ بالعَجز وقالتْ بلِسانِ الحالِ : [لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ]

أيّها العزيزُ اخرُجْ مِنْ مُهْلَةِ [الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

واجتنِبْ مشغلَةِ [شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا]

وارْفَعْ حمْلَ هِمَّتِكَ مِنْ حَضيضِ صُحْبَةِ المُنْقَطِعِينَ في تيهِ غَفْلَةِ [نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ]

وأَرْكِضْ جَوَادَ طلبِكَ في ميدانِ المحبّة الرّبّانية بتقريبِ [أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ]

واذْهَبْ بصولجانِ استِعانةِ [اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ]

في كَرَّةِ سَبْقِ [وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ]

إلى غايةِ [أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ]

عسى يبشِّرُ بريدُ دَوْلَةِ [وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ]

ببشارةِ [إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ]

و يعطيك مَنشورَ [قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ]

فإذا اطَّلَعْتَ على رموز المكنونات أسرعتْ بقَدَمِ الرَّأسِ إلى سُبُلِ سَلَامِ [وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً]

وقَصَدْتَ مُتنزَّهِ [أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ]

وسَأَلْتَ عَنْ أخبارِ خُلْدِ جَنَّاتِ نَعِيمِ [لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ]

فَيُدرِكُكَ مُبشِّرُ عِنايةِ [إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى]

فَيُخْبِرُكَ عَنْ ممَالِكِ دَارِ سَلامِ [رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ]

واحدةً بعد واحدةٍ ، ويَدْعوكَ إلى غنيمةِ [وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً]

و يُنيلُكَ نَوالَ [لَنْ تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ]

أيّها العزيزُ إذا بَلَغْتَ شموسَ سماءِ المعرفة إلى بُروجِ [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ]

و عرجْتَ لوحَ المحبّة على معاجِمِ مَدارجِ [وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي]

تَلْمَعُ بَوارِقُ أنوارِ [وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا]

و تُشاهِدُ بِعَيْنِ اليقين آثارَ [أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ]

في عظيمِ مُشاهَدَةِ [لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ]

و تطَّلِعُ على دَفائنِ أسرارِ [وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]

و تُشرِفُ على دَقائِقِ حَقائقِ [وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاتُبْصِرُونَ]

وتصيرُ مُحْرَمًا لرُموزِ [فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ]

و تَهُبُّ رياحُ فَيْضِ [وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ]

بروائِحِ فَضْلِ [نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ]

مِنْ مَهَبِّ [اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ]

في بَساتينِ [إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً]

و تورِقُ بِأوراقِ الشُّهودِ و تُثْمِرُ ثِمارُ التَّجَلّي إلى حَدِّ الكَمال أشجارَ رِياضِ [إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ]

و تَجْري ينابيعُ وُصولِ [ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ]

مِنْ شَوامِخِ جِبالِ [وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ]

إلى سَيْلِ أَوْدِيَةِ القلوب ، فيُخْبِرُها هاتِفُ الغَيْبِ على أَلْسِنَةِ الخَلائقِ خَبَرَ [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً]

و مُبَشِّرُ الإِقْبالِ يَتَفَوَّهُ بِبشارَةِ [يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ]

و يُدْرِكُهُم الرِّضْوانُ مِنْ [بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ]

مَعَ تُحَفِ تَحِيَّاتِ [سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَبٍّ رَحِيمٍ]

و يَفْتَحُ مائدة رِضْوانِ نَعيمِ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ]

و يقولُ [نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ]

أيّها العزيزُ لا بدّ مِنْ قلبٍ سليمٍ يَفْهَمُ رموزَ [فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ]

و فَهْمٍ كاملٍ يُدْرِكُ دقائقَ أسرارِ [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ]

و بَصَرٍ صادِقٍ يُشاهِدُ بِعَيْنِ القلب شَواهدَ مَعْرِفَةِ [وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ]

و يَسْتَقْبِلُ بقلْبِهِ دَوَاعِيَ وُصولِ [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي]

و ينَتَبَّهُ مِنْ نَوْمِ غَفْلَةِ [وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ]

مِنْ زَواجِرِ تَنْبِيهِ [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً]

ويَسْتَمْسِكُ بعُرْوَةٍ وُثْقَى [وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ]

و يركبُ على سفينةِ [فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ]

في بَحْرِ [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ]

ويَغوصُ فيه باذِلًا ، فإنْ ظَفِرَ على جواهرِ المطلوب [فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً]

وإنْ تَلْفَتْ مُهْجَتُهُ [فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ] " اهـ بتصرّف ، تأمّلْ تَهْتَدِ .

وقال أحدُهم أيضًا بلسانِ الأَزَل ، وهو وارِد الرّبّ الّذي لم يَزَلْ : " لمّا ظَهَرَ مِنْ سِرّ النّون ، نونُ الأنانيّة : [إِنِّي أَنَا اللَّهُ] ، فَصَحَّ الهجاء وحَقَّقَ الرّجاء ، استنبط لآدم وذرّيّته مِنْ كافِ الكَنْزِيَّة ، لَمَّا عَلِمَ مُرادَ المُكَوّن مِنَ المُكَوَّن ، جاعِلًا له كافَ التّكريم : [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ] ، وكافَ الكُنْتِيَّة : (كُنْتُ سَمعه الذي يسمع به ...) ، واستخرج له مِنْ نونِ الأنانية نونَ النِّعْمَةِ : [وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا] ؛ وأمّا إبليس اللّعين فإنّه مَكَثَ في مكتب التّعليم أربعون ألف عامٍ يتصفَّحُ حروفَ [كُنْ] وقدْ وكله المعلّمُ إلى نفسه ، وأحالَهُ على حَوْلِهِ وقوّته ، فكان ينظر إلى تِمْثَالِ [كُنْ] ليَشْهَدَ مِنْ تِمْثالِها كافَ كُفْرِهِ [أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ] ، ويَشْهَدَ مِنْ نُونِهَا نُونَ نَارِيَّتِهِ ،

فإنّ الماء الجاري في شريان شجرةِ [كُنْ] وعروقها الذي حَصَلَ به نُمُوُّها هو مِنْ عالَم الجبروت الذي هو سِرُّ [كُنْ] ، وقَدْ تَناول كلّ شخصٍ مِنها حَظّه المقسوم ، فواحدٌ يَشْرَبُ بكأسِه المختوم ، وآخرُ بكأْسِه المحْتوم ، وآخرُ بينهما محرومٌ ،

ومَنْ أَخَذَ مِنَ الشّجرة ذاتَ الشّمال و مَالَ ، فلمّا أُرْسِلَتْ رياحُ [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ] استنشقها مَنْ سَبَقَتْ لهم الحُسْنى فمالَ إليها مُتَعَطِّفًا ، ومَنْ كان مَزْكومًا وعَصفتْ به عواصفُ القُدْرَةِ أصبحَ بعد نضارتهِ يابِسًا ، وأرْجَعَتْهُ سعادتُه الموهومة عابِسًا . " اهـ ،

وقيل : *تستطيعُ أنْ تَتَحَكّمَ في خواطرك عبر الخطوات التّالية :*

1 – كثرةُ ملاحظة الآيات المَتْلُوّة ،
2 – ملاحظة الآيات المَجْلُوَّة في الآفاق والنّفس ،
3- معرفة النِّعَم الظّاهرة والباطنة ،
4 – معرفةُ عيوب النّفس ،
***5 – معرفة واجِب الأوقات ، الحالي فالتّالي ، و الأهمّ فالمهمّ* ، فإنّ الوقت مَقْتٌ ، فتجلّيات الدّقيقة الأولى ليس كتجليّات الدّقيقة الثّانية ، إذ لايتكرّر تجلّ واحد مرّتين ، وهكذا فإن لم تحقّق طاعة الوقت الأوّل وأخّرْتَها وأجّلتها إلى وقتٍ ثانٍ فلا تعجب إنْ اختلفت عليك النّتائج لاحِقًا ، لأنّ تجلّيات النّتائج تأتي في وقت النّتائج ، وأنت لم تحقّق طاعة تجلّيات الأسباب التي طلبتك خواطرُها في وَقتِها الأوّل وأَجَّلْتَها ، وكذلك فإنّ الشّيطان لمّا يُريد أن يوسوس لك بخاطره ليشوّش على الخاطر الرّبّاني الذي جاءك بالطّاعة والبعد عن المعصية ، وهو يعلم أنّه لايستطيع أن يغلب خاطر الحقّ تعالى لذلك يزيّن لك ، فإن لم تجب الخاطر الشّيطاني في الوقت الأوّل فإنّه سيَفِرُّ لعدم قُدرته على الصّمود أمام وارِد الحقّ تعالى ، فهنا ينصُرِكَ الله تعالى بخاطرِهِ ، ويذهب الشّيطان بخاطره إلى شخصٍ آخر غيرك ، فأنت اتَّبَعْتَ التجليات والواردات للحقّ تعالى لا للنّفس أو شيطان أو فلان أو نحو ذلك ، وهنا تعلم أنّ الوسوسة الأصلية في النّفس ، لا مِنَ الشّيطان ، ألا تَرى قولَه تعالى : [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ] قبل قولِه : [وَقَالَ قَرِينُهُ] ، وجعل موجِب ذلك الغفلة عن ذِكر الله تعالى : [وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ] بما في ذلك شياطين الإنس ، فعنهم**

تَستَمِدُّ الخواطر الشّيطانية قوّتَها ، إذ الأصل في خاطر الشّيطان الضّعف وتفاهةُ الأدِلَّة ، ولولا إخوانه مِن الإنس لما زَيَّن للعباد خواطره : [وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ] ،

و قال تعالى في دور قرناء السّوء والصُّحبة الفاسدة في إنعاش خواطر الشّيطان في قلب العبد ، وثمرتُها الحَيْرَة : [كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا] ، فتكون تَجلّيات كلّ حَضْرَةٍ بالوارِدات والخواطر على قدر مَقامِ الحاضِرين ، وأعني بذلك مقام القَلْب ، إذ هو محلّ هذه الخواطر وتتجلّى حينها في صورة أفهامهم وعلومهم ، إن كانت ربّانية فالخواطر ربّانية ، أو شيطانية فالخواطر شيطانية ،
وقال الشّيخ بن الهاشمي بكّار رحمه الله تعالى ، مُفْتي مُعَسْكَر بالجزائر في وقته ، مبيِّنًا حال الصّحبة ، لأنّها أساس التّغيير الحقيقي ، لمّا تصبح خواطرك ربّانية في الغالِب ، والعكسُ صحيحٌ :

واصْبِرْ نفسَكَ يا فَطين مع الذين يَدعون رَبَّهم ذاكرين لوجهه مُرِيدِين
وكُنْ بِهم واثِقًا هُم القوم لايَشْقى جليسُهم حقًّا رُوِيَ عن الشّيخَيْن
صاحِبْ الفُقرا واغْتَنِمْ الكُبرا لا تَقْعُدْ بَعْد الذِّكرى مع القوم الظّالِمين
قَد استحوذ الشّيطان أَنْساهُمْ ذِكْرَ الرَّحْمن فحِزْبُه في خُسْران يا خَيْبَةَ الخاسِرين
لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا بِهذا أَرْشَدَنا رَبُّنا في الآيَتَيْن
لا تَرْكنوا للظّالِمِ تمسّكم الجحيم فما لكم مِنْ مُكرِم ولا مِنَ النّاصِرين اهـ

واعلم أنّ الخواطر الشّيطانية هي الأخطر على العباد بعد الخواطر النّفسانية ، لأنّ خاطر النّفس خفيف سريع يُريد مقصودا واحدا ولا يتعدّاه إلى آخر ، أمّا خاطر الشّيطان فصعب لأنّه يأتي بتأنٍّ وحيلةٍ وصَبْرٍ وتَنَوُّعٍ كبير في وسائل الغواية ، لذلك قال إبليس اللّعين : [لَأَقْعُدَنَّ] ولمْ يَقلْ : لأَقِفَنَّ ، لأنّ إغواءَه يحتاج إلى تمهُّلٍ شديدٍ وصبرٍ كبير حتّى يُعْطِيَ وارِدُهُ أقوى مفعول مُمْكِنٍ دون أن يَتَفَطَّن العبد لذلك إذا لم يكن معه واردٌ ربّاني أو مَلَكي ، فإذا لم ينفع مع العبد تزيين معصيةٍ انتقل به إلى أخرى وإن كانت أخفّ من الأولى ، كما قال ابن تيمية رحمه الله في كتابه (النُّبُوّات) : " الشّياطين تَظْهر عند كلّ قومٍ بما لا يُنْكِرون " اهـ ،

واعلم أيضًا أنّ القلب يتكوّن من منطقتين :

1 – منطقة الخواطر (وهي منطقة المَواهِب) : [لَهَا مَا كَسَبَتْ] ،

2 – منطقة الإرادات (وهي منطقة المَكاسِب) : [وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ] ،

فمنطقة الخواطر لها أربعة أنواع : خاطران من ذات النّفس ، وخاطِران من خارجها ،

فهناك خاطرُ النّفس الأمّارة ، ومُمِدُّها الخارجي هو الشّيطان بخاطِرِهِ ،

وهناك خاطر النّفس المطمئنّة ومُمِدُّها الخارجي هو المَلَك بخاطره ،

فتحصّل لنا خاطرَيْن رئيسيين : خاطرُ الهوى ، وخاطرُ التّقوى ، هما ركنا منطقة الخواطر من القلب ، ومنها ينتقلان لمنطقة الإرادات ؛ وهنا على العبد أن يحذَر ، فإنّ الشّيطان أوّلًا يُلْقي بِذْرَة في النّفس

التي هي أرض القلب بمنطقتيه ، ثمّ يُراقِبها مِنْ بَعيدٍ [إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ] ، ثمّ يسقيها قطرةً قطرةً بحيث لا يَتَفَطَّن العبد كما ذكرنا ، فيصبح ما كان خَطْرَة فِكْرَةً ثمّ شهوة ثمّ هِمّة ثمّ إرادة ، فإذا تواصل إصرار الإرادات تَحَوَّلَ إلى كبيرةٍ، وصَعُبَ عليه الإقلاع عنها ، إذْ البذرة بعيدة ، والبَذْر عَهْدُهُ بَعِيدٌ أيْضًا ، فالقلب لا يخشع للرّحمن مادامت أرضُه وهي النّفس خاشعة لأمطار وواردات الشّيطان ، فإنْ استقامت النّفس استقام القلبُ ، والعكس بالعكس ،

فأوّل ما تفعله لتحافظ على سلامة قلبك من خواطر الشّيطان ، أنْ تنظر لحال الخَطِّ الدّفاعي للقلب وهو النّفس ، ثمّ لحالِ الخَطّ الهجومي له وهو السِّرّ الذي هو أبطن قَلْبٍ في القَلْبِ ، فإذا فهمت كيف تُرَوِّض نَفْسَك عند وُرود المَوارد على منطقة الخواطر عرفت كيف ستكون منطقة الإرادة من القلب ، وبذلك تسبقه بخطوات قبل تحقُّق الإرادة بفضل قدرتك على تحديد الخاطر الأوّل كما ذكرنا ،

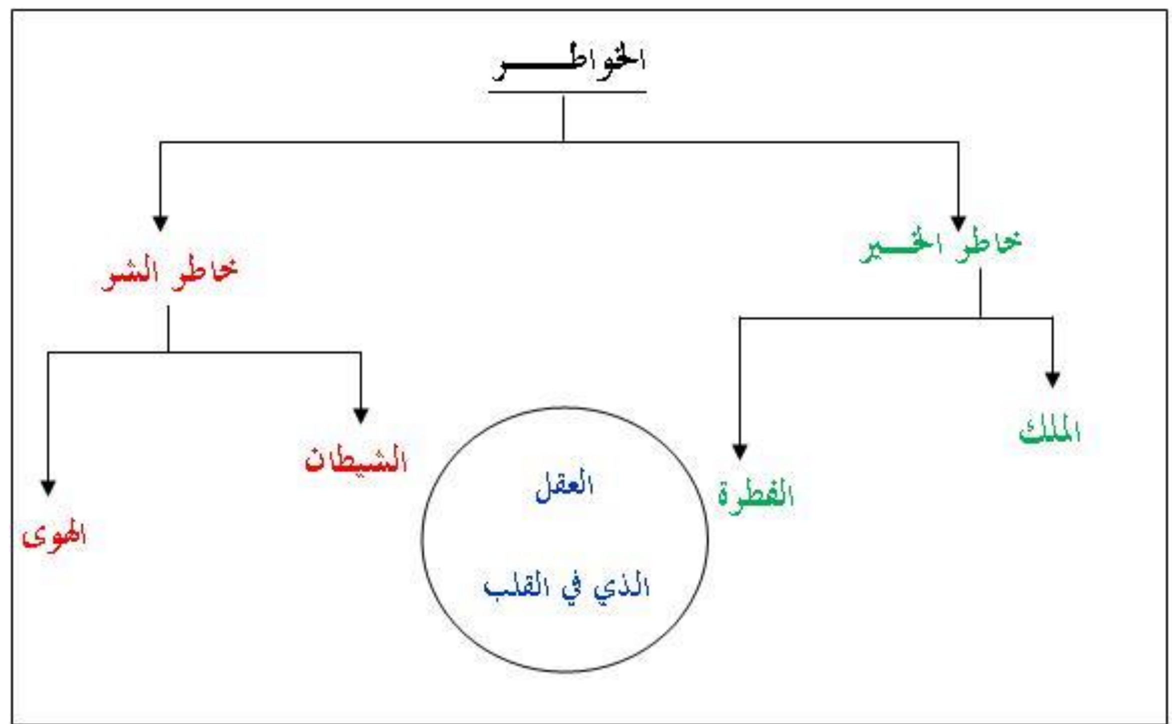
فالنّفس حِجاب القلب عن الحقّ ووارِداتِهِ ، والقلبُ لا يكون مطواعًا لك إلّا بعد كشف حجاب النّفس الذي يُغطّيه ، أعني خاطر النّفس ، قبل خاطر كذا وكذا ،

فإنّه إذا وَرَدَ عليك وارِدٌ مِن الشّيطان فاعلم يا أخي أنّك غير طاهِرٍ ، سواءً في الظّاهر أو في الباطن أو معًا ، فَتَتَبَّعْ جَيّدًا الموضع القَذِر الذي عَلِقَتْ به وارداتُ الشّيطان حتّى لا يعود مَرَّةً أخرى ، فهذه هي التّوبة والعودة مِن قريبٍ ، فإنّ القَلْبَ وُضِعَ في الأصل بَيْتا للرّحمن ، والوارِد الرّحماني إذا وَجَدَ الشّيطانَ قاعِدًا في البيت المعمور بالشّهوات والشّبهات فإنّه سيُنازِلُه إنْ كان في صاحِبِهِ بَقِيَّةُ ذِكْرٍ لله تعالى ، وهو أصْلُ العقيدة الصّحيحة ، وإلّا سينصرِفُ ويعود مِنْ حيث جاءَ ،

فالوارِد كيفما كان نوعه لا يَعْمَل إلّا تَبَعًا لعقيدة وسلوك صاحبه ، فهو لا يُفَرِّقُ بين قَلْبٍ وآخَرَ إلّا بهذه العَلَامة ، أعني مُعْتَقَدُ صاحِبِهِ في رَبِّه تعالى ، دون مُحاباةٍ بين هذا وذاك ، كالأمطار التي تنزل بالتّساوي على الجميع ،

فإذا أَسَّسْتَ عقيدةً سَليمَةً في منطقة الخواطر فإنّ منطقة الإرادات سَتَكونُ أسْلَم ، والعكس صحيحٌ ، فإنّ منطقة الخواطر هي إقليم العقيدة ، ومنطقة الإرادة هي إقليم التّطبيق والسّلوك ، فترى للشّخص يُخْطِر أمر العبادة أو الصّدقة في قلبه ، أي في منطقة الخواطر أوّلًا ، ولكن عند التّطبيق لا يكون هناك خشوعٌ في الأداء ولا تَقْوى لله تعالى بعد الأداء ، لأنّها خاطر نفساني لمّا مَرَّ في منطقة الإرادة كانت شهوة أو عادة ، وليس عبادة ،

واعْلَمْ واللهُ تعالى أَعْلَمُ ، بأنّ منطقة الخواطر فيها يَجِبُ إحْكام توحيد الرّبوبية خاصّةً ، وفي منطقة الإرادات يجب إحكام توحيد العبودية خاصّةً ، وفيهما معًا يجب إحكام توحيد الأسماء والصّفات ، فالخواطر إذا تزاحمَتْ لا يَنْفَعُكَ منها شيءٌ إذا لم توحِّدْ وِجْهَتَها لربّها وبارِئِها مسلِمًا مُسْتَسْلِمًا ، فتعرفُ



ربَّها وماذا يُريد منك ، فتُقَدِّم ما يُريد على ما تُريد ، والكُلُّ مَخْلوقٌ له تعالى وحْده ، فإذا صَحَّ ذلك سَلِمَتْ منطقة الإرادة من التَّلْبيس والتّخليط ، فيُصبِح الخاطر كيفما كان رَبَّانِيًّا ، فيُهْدى صاحبْه إلى الحقّ وإلى صراطٍ مستقيم ، فإذا صَحَّتْ الإرادة إذنْ صَحّتْ العِبادة ، وصارتْ كُلُّ إرادةٍ عبادة ، ولن يكون ذلك لك أخي وأختي إلّا بالسّلوك إلى الله تعالى كما ذكرناه في كتابنا (خطوتان للحقيقة) على يَدِ مُرشِدٍ ماهِرٍ ، وإلّا بقيتَ تتخبّط مع خواطر الشّرك والشّيطان طول حياتك فلا تنفعك بعد هذا أيّ إرادة تريد تحقيقها في الدّنيا ، ولا تُروي أيُّ إرادةٍ أو هدَفٍ تُحقّقه شَغَفَكَ و خواطرَك ، لأنّ منطقة الخواطر غير سالكة على الوجهِ الخاصّ ، لا على أيّ وجهٍ كان ، وبالتّالي لم تصلُح منطقة الإرادات في قلبك أيضًا ، فالحذر ،

ثمّ خاطر الهوى له ثلاثة أصول : إمّا فحشاء أو منكَر أو بَغْي ، والكُلُّ سُوءٌ ،

وخاطر التّقوى له أصلان : إمّا بِرٌّ أو عَدْلٌ ، وهما يأمران بكُلِّ خَيْرٍ وصِلَةٍ ،

فتكون الخواطر في الأخير هي صفةُ النّفس ، وتكون الإرادةُ هي صِفةُ القلب ، فالأولى بذْرَة ، والأخرى ثمرَة ، فانتبه لما تزرعه خواطرُك النّفسانية في أرض قلبك حتّى تحلو لَكَ الثّمرة ، فإنّ الخواطر هي قوّة وطاقةٌ ليس لك غيرها وهي في نفْسِ كُلّ واحِدٍ مِنّا ، والإرادة هي الفعل والقَول الذي تنتِجُه تلك القوّة ، فتكون الإرادة هي ردُّ الفِعل على فِعل الخواطر لا غَيْر ،

فعند منطقة الخواطر في القلب يُمْتَحَنُ العبدُ في إيمانه ، فهي حقل الإيمان الذي مَحَلُّه العقل الذي في القلب لَمّا يُمَحَّص بهذه الخواطر كما قال تعالى : [وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا] ، وعند منطقة الإرادة

يتقاضى العبدُ ويَجنِي ثمار ما آمَنَ به على حسب نوعيّة الخواطر ، فهي حَقْلُ الإحتساب ، وليس بعدهما إلّا الحِساب ، لذلك رَبُّنا تعالى يُمهل في منطقة الخواطر ، لكنّه لا يُهْمِل ، لقيام الشّواهد والأدِلَّة في منطقة الإرادة ، فهي ذاكِرةٌ تشهد على جوارحك وأفعالك ، إلى يوم القيامة ، [يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِي الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ] ، بحيث لو كَذَّبْتَ خاطرَك فإنّ إرادتك لن تَكْذِب ، فهي تنطق عليك بأفصَح لسانٍ : مَنْ غَشَّنا فليس مِنَّا ، فافهم واحذر ،

تَذَكَّرْ يا أخي أنّ الشّيطان لا يستطيع أن يوسوس لك إلّا بصورةٍ تتصوّرها بغضّ النّظر عن مضمونك أنت ، لكن المضمون ينتصر إذا اتّبعْتَ مضمون الإسلام الحقيقي بغضّ النّظر عن الصّورة والمعنى الذي يلبّسه الشّيطان ، إذ تلك طبيعة خواطره لا تتغيّر ولا تتحوّل ، فغَرَض الشّيطان مِن دخوله على العباد بخطوات صغيرة حلوة ومصطنعة لا تكاد تُرَى ، عوض الدّخول من البداية بخطوة قويّة كبرى دُفعةً واحدةً هو أن يوقِع العبد في فَخّ التّسلسل ، فمثلًا إن انتبه العبدُ لخاطرٍ ما بأنّه من الشّيطان ، ماذا يفعل الشّيطان هنا ؟ ، يُعيدُ العبدَ ويُرْجِعُه إلى آخر خطوةٍ ارتضاها العبد في معتقَدِهِ أو إيديولوجيّته دون أن يشعر هنا بأنّها من الشّيطان بالضّرورة ، ثمّ يُلَفِّق له خطوةً أخرى يُزَيِّنها مع الخطوة السّابقة لتتشَكَّلَ حَلَقةً جديدة في السّلسلة ، وهكذا ، فانتبه ،

ولنختم هذه التأمُّلات بكلامٍ للشّيخ محمّد وَفَا رحمه الله تعالى : " الخواطر هي الأرواح المُجَرَّدة عَنْ أجسام بني آدم ، تَرِدُ على قلوبِ أمثالُها إذا استعَدّتْ لقبولِها بحُكْمِ ما تَجَرَّدتْ عليه" *كما قال تعالى : [دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا]* ، " وشَاهِدُهُ : _يموت المرءُ على ما عاش عليه ويُبْعَثُ على ما ماتَ عليه _ ؛ وكلُّ خاطرٍ له لسانٌ وعِلمٌ وحكمٌ وخُلُقٌ ومقصدٌ ومنحى " ، *وهي لا تُعرف تَفْصيلًا إلّا بالسّير والسّلوك إلى الله تعالى طيلة حياتك ، وذكرنا شيئًا مِنْ ذلك في كتابنا (خطوتان للحقيقة)* ، " فمنها الإلهيات ، ومنها الرّبّانيات ، ومنها النّبويّات ، ومنها الجانّيات ، ومنها الشّيطانيات ، ولكلٍّ منها واردات مختلفة ، قد تَرِدُ نفسانية ، وقدْ تَرِدُ روحانية ، ومن هنا يُعْرَف الإطّلاع على البرازخ المَلَكوتية ، والله المُوَفِّقُ للصّواب " اهـ ، لذلك مَنْ سار لله تعالى على خيالٍ ، صاحَبَه خياله حتّى البرزخ وما بعْدَه ، ومن سار على غير ذلك كان كذلك ، فتكون الخاتِمة على وَزْن السّابِقَة شِبرًا بشِبْرٍ وذِراعًا بِذِراعٍ ، وأصلُ ذلك وفَصْلُه ليس سِوى بهذه الخواطر ، وبالله التّوفيق .

النّصّ المُحقَّق

كتاب المَدَدُ البَاهِرُ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَوَاطِرِ

للعالِمِ الشيخ عُبَيْدَة ابن الشيخ المُقْرِئ المُتْقِن محمّد الصّغير بن أنْبوجا الشَّنْقِيطِي

رحمه الله تعالى ونَفَعَ بِهِ

الحمد لله الذي خَلَقَ الإنسان ويعلم ما تُوَسْوِسُ به نفسُه ، ونصلّي ونسلّم على سيّدنا محمّد رسول الله الذي هو أصل الوجود وأُسّهِ ، وعلى آله الطّيّبين وصحابته الأكرمين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين ، أمّا بعد فقد أكْثرتَ أيّها الأخ المعتقِد المنصف العطوف المتعطّف عليّ في هذا المجال المَقال ، ومِثْلي لا يكون عليه السّؤال، في مَا يَقَعُ بِهِ التمييز بين خواطر البال ، إذ هي مَزَلّة أقدام فحول الرّجال ، فكيف بالصّبية المُرضَعينَ الأطفالِ ، وما ذلك إلاّ لِما ألبسني الله إيّاه في عينيك من الزّيّ الحسن ، النّاشئ عن حسن الظّنّ ، ولست يقينا من أرباب ذلك الفنّ ، فسبحان من أظهر الجميل وستر القبيح بمحضّ الكَرَم ، وأبْرز الوجود وسَتر العدَم ، وهذا الميدان لا ينبغي لمثلي الكلام فيه ، إلاّ بمَدَدٍ ربّاني يحميه ، ويأتي بفيضٍ رحمانيٍّ يهديه ، إلى حقيقة ما تَعنيه ، ولا يمكن الفحص عنه إلا باستدعاء حقائق عرفانية ، ودقائق حقّانية ، وفيوضات نبوية ، وأُخُوَّة إخوةٍ أشِقّاء ، وبني علّاتٍ وإخاء ، تَقِي من جميع المخاوف والأتْلاف ، وتُطلع على دسائس وخسائس النّفس ، لا يطّلع عليها إلا من غاب عن شاهد الحسّ ، و لا يقوم في ذلك المقام من يتكلّم عليه بالوهم والحَدس ، إلاّ كما يقوم الذي يتخبّطه الشّيطان مِن المسّ ، وأظنّنا أنّك لا تَعنينا بما عَنَيْتَ ، وما رميتنا بما به رَمَيْتَ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والله على ما نقول وكيل ، وإيّاه أستخير ، وبه أستعين وأستجير ، وسمّيته : **المَدَدُ البَاهِرُ في التّمييز بين الخواطر** ،

والله أسألُ أن ينفع به مَن نظره بعين الإنصاف ، لا بِعيْن الإستخفاف ؛ وأسّسته على ثلاث خُطَطٍ ، تُنبئ عن ثنايا المقصود بلا شَطَطٍ :

الخطّة الأولى في ذكر النفس وماهي ، وكيفيّة قِسمتها وذكر القويّ منها والواهي ،

والخطّة الثّانية في معرفة الخواطر، والتّمييز بينها عند النّاظِر ،

والخطّة الثّالثة في كيفيّة مُدافعةِ ما يُدافَعُ منها ، بكيفيّةٍ لا يَحيدُ المُريدُ والمُؤمِن عنها ،

وربُّك الفتّاح العليم ، الرّحمنُ الرّحيم ، العليُّ العظيم .

الخُطّة الأولى في ذِكر النّفس وماهيّتها وكيفيّة قِسمتها وذِكر القَويّ مِنها والواهي :

اعلم أكرمك الله أنّ الذي أَتْبَعَتْكَ مُطالبَتُهُ هو من نتائج أفكار أهل المراقبة ، يلزم الإهتمام به من له أدنى وقوف بأسواق المحاسبة ، ويَعتني به منَ حاسب نفْسه قبل أن تُحاسَبَ ، ووَزَنَها قبل أن توزن فتُنَعَّمُ أو تُعَذَّبُ ، إذ هي مبدأ الأفعال ، تُحَرّكُ الرّغبة المُحَرّكَة للعزم المُحرّك للنّيّة المُحرّك للأعضاء ، التي تأتي بالدّاء والدّواء ، فمن لم يميّز بين الخواطر تَعَاطَتْهُ جَوائح عديدة مُبيدة ، تلقيه في حيرة شديدة ، مع أنّ المطلوب مِن الإنس الحَيْرة البسيطة في سَراح الوُجودِ ، حتّى يَعْلَمَ أنْ لا سبيل إلى أن يُقَدَّرَ حَقَ قَدْرِهِ المَلِكُ المَعْبودُ ؛ لا الحَيْرَةُ المُرَكَّبَةُ التي أنت عَلَيْها اليوم ضَريرَةٌ ، تظنّ أنّك على بصيرة وأنت على غير بصيرة ، وأنّك عَلِمْتَ شيئًا وغابَتْ عَنكَ أشياءُ ، وأنت لم تَدْري شيئا وبَصيرتُكَ عَمْياءُ ،

وذلك أن تعلم أوّلاً أنّ مَدار الخواطرعلى الخاطر النّفساني لِقُبُولِهِ بالقُوّة جميع ما يُلْقي الله تعالى ، ولا تَعْرِفُهُ حتّى تَعْرِفَ النّفْسَ وماهِيَّتِها ومِنْ أين مَصْدَرُها ومَوردُها (فراجع مثلاً كتابنا " خُطوتان للحقيقة " فقد ذكرنا مكاشفات الإنسان في نفسه والآفاق ، وهذا المخطوط الذي نحقّقه مكمّل لما ذكرناه هناك) ، إذْ الحُكمُ على الشّيء فَرْعُ تَصَوّرِهِ ،

فالنّفسُ عندهم مُقسّمة إلى ثلاث أقسام :

أحدها الطّبيعية ، وهي بخار لطيف يوجد باجتماع الرّوح والجسد ، ومحلّها في الكبد ومنه تجري في الأعضاء ليجعل الدّم غذاءً للأعضاء ، وعند التّعب يتداركه بإحداث مِثْلِهِ ولا يتخلّف منها عضو ،

والثّانية الحيوانية ، ومبدأها في القلب وقواها مع الرّوح فتنتشرالأعضاءُ معها لتحيى منها ،

والثالثة المُدَبّرة ، وهي على ثلاث أقسام : إحداها التي تجري في الأعضاء وتُحَرّكُها وتستعملها وتسمّى هذه النّفس المُحَرّكَة ، والثانية هي المُستَعمِلة للحواسِ ، والحواسُّ خُدّامُها التي تُدْرِكُ الأشياء وتُنْهيها إليها كالجواسيس ، وهذه تُسَمّى بالحِسّ المُشتَرَك ، والثّالثة هي القوّة العقلية ، وهذه أيضا على ثلاث أقسام : أحدها القوّة المُتَخَيّلة ، وهي عبارة عن معنًى يحفظ صُور الأشياء المُدْرَكة بالحواسّ بعدما غابت الصّوَر عن الحسّ ، والثانية من هذه العقليّة تسمّى القوّة المُفَكِّرة ، وهي عبارة عن معنى

يقبل التّخيّل لصور الأشياء ثمّ يعرضها على الفكر ، ويميّزها الفكر خيرا أو شرّا ، صوابا أو خطئا ، ويدرك أن هذا المعنى لأيّ شيء يصلح ولأيّ شيء يُعَدّ وبماذا يليق وما شأنه وما فَصْلُه ، والثالثة من العقليّة تسمّى القوّة الحافظة ، وهي معنًى إذا أدرك الحسّ ، وقبِل التخيّل ، عُرِض على الفكر ، والفكرُ يحكم في ذلك بنفي أو إثباتٍ ،

فبالقوّة المفكّرة وقع التّمييز ، وبالقوّة الحافظة تُحفَظ تلك المعاني التي أدركها الحِسّ وقَبِلها التخيّل بالقوّة المُدَبِّرة بأنواعها الثلاثة هي أصل القوّتين السّابقتين ، أعني الطّبيعيّة والحيوانيّة ، وهما كالحَرَم لها ، وإنّما سُمّيتْ القوّة المُدبِّرةُ مَدَبِّرةً لأنّها تُدَبِّر في البَدَن وتُغذّيه وتُنَمّيه وتُخْرِج الفُضولَ عن البَدَن حتّى يَبْقى على الصِحّة ولا يأتيه الفسادُ ، وبذلك تعيش النّفس الحيوانية ، لأنّ البدن إذا لم يكن بهذه الصّفة لا يليق بالنّفس المُدَبِّرة ، وهي التي تتصرّف في الجنّة الباقية على كمال صفائها ، لا في الدّنيا المَيّتة ،

ثمّ إنّ هذه النّفس المُدَبِّرة هي اللّطيفة الإنسانية التي هي مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ ، والبرزخيّةُ بين بَحْر الرّوح وبَرِّ الجسد اللذان لا يجتمعان للتّباين الّذي بينهما ، فمَثَلُ النفس والجسد والرّوح كمَثَل الهواء والأرض والسّماء : فالرّوح من العالَم العُلْوي ومبدأه من السّماء الدُّنْيا ، والجسد من العالَم السُّفْلي ومَبدأه من سَطْح الأرض المُلاقي للهواء ، وأمّا النّفس فهَوائيّةٌ لا تُشاهَدُ كما لا يُشاهَدُ الهواء ولا نعرف له حقيقةً إلاّ فراغٌ بين جَرْمَيْنِ جامع بين السّماء والأرض ، فالنّفس هي الجامع بين الرّوح والجسد فلا هي من الرّوح ولا هي من الجسد ، وهي أيضا مِن كلّ منهما كما أنّ الهواء ليس من السّماء و لا من الأرض وهو أيضا مِن كلٍّ منهما ، فهو بجُزْئه الملاقي للأرض أرضيٌّ ، وبجُزْئه المُلاقي للسّماء سماويٌّ ، فهو لا أرضٌ محضًا و لا سماءٌ محضًا ويُنْسَبُ لكلٍّ منهما ولا يَخْلوا مِن كلٍّ منهما ، فإن ترَقَّت النّفس إلى جُزْئها الهوائيِّ السّماويّ الأعلى ، واتّصفت بصفته من الصّفاء والصَّقالة والشّفوفية كانت علويّة ونفسًا مُطمئنّةً ويكون خاطِرها روحانيًّا لا عمل له إلاّ بإشارات العقل لا بالشّهوة ، وإن أخلدت إلى الأرض أيْ إلى جزئها الهوائيّ المُلاقي للأرض واتّصفت بكثافة الجسم وخبثه كانت جسمانيّة وكان خاطرُها جسمانيًّا لا عمل لها إلاّ بمقتضى إشارات الجسم وشهواته وكانت نفسًا أمّارةً بالسّوء ، وإن كانت بين المرتبتين أيْ لم تَقْرب من الجزء المُلاقي للسّماء و لا من الجزء المُلاقي للأرض ، أيْ بقيت في بحبوحة الهواء ، كانت نفسًا لوّامةً لأنّها تلوم صاحبَها على فعل السّوء وتُسَمّى أيضا قلبا لتقلُّبِها بين الطّرفين من خطإٍ وصوابٍ ،

وهذه النّفس ، أعني المُدَبِّرة ، هي المُسَمّاة بروح الإدراك وهي المُتَوَفّاةُ في النّوم وهي المُتَشَخَّصَةُ في البرزخ المسؤولة المَجيبة عن صاحبها في القبر ، وهي المَرْئِيَّةُ مِن المَيّت يَتشخّصُها حتّى يُبْعَثَ ، وهي مناط التّكليف ، وأمّا روح الحياة فلا تَصَرُّفَ لها إلاّ في الجسم كما أنّ لا تصرُّف للجسم إلّا بها ، فإنْ فارقته بالموت بَطُلَ التّعامل بكلٍّ منهما في الآخَر ، و لا تكون مُلاقاتها مع جسدها إلّا في النَّشْر يوم الحَشْر ، لكن لمّا اقترن الرّوح والجسد ودخلا البرزخَ الذي هو واسطة بين الدّنيا والآخرة ، فلا هو من الدّنيا بدليل مُفارقة الرّوح للجسد ، ولا هو من الآخرة بدليل عدم انقطاع العذاب عن الكفّار فيه ، ورَقْدَتِهم المَبْعوثين مِنها ، كما قال تعالى حِكايةً عنهم : [قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا] ، فلمّا افترقا صارا يتصرّفان في دارالبرزخ بالنّفس التي كانت برزخًا بينهما برزخٌ ببرزخٍ ، فقام طَرَفٌ مِن النّفس الذي هو من الرّوح بمثابة جزء الهواء العُلوي المُلاقي للسّماء ، وقام من طَرَفِها من الجسد الذي هو منه بمثابة جُزء الهواء المُلاقي للأرض ، أعني الجزئين الآخذ كلّ منهما مِن كلٍّ من السّماء والأرض طَرَفًا قام من هذين الطّرفين شخصٌ يَتَشَخَّصُ وينوب عَن كلٍّ منهما في النّعيم والعذاب

والجواب في القبر وفي القيامة بين يدي الله ، فكان المُنسحِب على هذا الشّخص منسَحِبًا على الرّوح والجسد لأخذه من كلٍّ منهما طَرَفًا ،

وأمّا حقيقة الرّوح والجسد فلا يَجتمعان في البرزخ بوجهٍ ، وإلاّ لبُعِث مِن حينه ، وإنّما التصرّف في البرزخ لروح الإدراك المُعَبَّر عنها بالنّفس المُدَبِّرة ، وفي هذا القدر كفايةٌ لأنّ الكلام فيما وراء ذلك يستدعي الكلام في الرّوح الذي هو مِن أمر ربّي ، ولم يُعَبِّرْ عنه إلاّ بالنَّفْخِ في قوله تعالى [وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي] ، وربُّك الفتّاح العليم ، الرّحمن الرّحيم ، العليّ العظيم .

الخطّة الثّانية في معرفة الخواطر، والتّمييز بينها عند النّاظِر

اعلم أرشدك الله أنّ ما يقع مِن خواطر في النّفس له خمس مراتب :

الأولى **الهاجس** ، وهو أوّل ما يُلقى فيها كالقرع للباب ،

والثّانية **الخاطر** ، وهو جَرَيانه فيها ،

والثّالثة **حديث النّفس** ، وهو تَردّدها هل تفعل أو تترك ،

والرابعة **الهمّ** ، وهو ترجيح قصد الفعل ، و لا مُؤاخذة بهذه الأربع ، وفي هذه الرابعة تَفترق الحَسَنة والسّيّئة فإنّ الحسنة تُكتب له والسّيّئة لا تُكتَب عليه ، كما في حديثِ (إذا هَمَّ عبدٌ بحسنة فلم يَعملها كُتِبتْ له حَسَنَة فإن عَمِلها كُتبتْ له عشر حسناتٍ إلى سَبع مائة ضِعفٍ وإذا هَمَّ بسيّئة فلم يَعملها كُتبت له حَسَنَةً وإن عَمِلها كُتِبَتْ له سيّئة واحدة) ، بخلاف الثّلاث الأولى فلا يَترتّب عليها ثواب ولا عِقاب ،

والخامسة **العَزْم** ، وهو قوّة ذلك القَصد والجَزْم به ، وهو مُؤاخَذٌ به على المُعتَمَد على أكثر الأقوال ، ويُكتَب له سيّئةً ، وليست السّيّئة التي نراها لأنّه لم يَعمل بها بل بسبب أنّه قَطَعَه عنها قاطِعٌ غيرَ خَوفِ الله تعالى ، فإن تَركها خشيةً لله تبارك وتعالى كُتِبَتْ له حَسَنَة ،

فالخاطر فِكْرٌ يَعرض بعد الهاجِس للقلب بَعد أن كان خاليه منه ، وذِكْرٌ لِما تَقَدّم للقلب فيه ثمّ ذَهَلَ عنه ، فالقلب كمِرآة منصوبة يَجتاز عليها أصناف الصّور المختلفة فتَتَراءى فيها صورةً صورةً دون أن تَخلوا عنها ، وهذه الصُّور تتراءى له مِن جِهتيْن : جهة باطنة وجهة ظاهرة ؛ أمّا الجهة الظّاهرة فبالحواسّ فإنّه إذا رأى بالحواسّ شيئا حَصَلَ منه في القلب إثمٌ ، وأمّا الجهة الباطنة فبالخيال والشّهوة والغضب والأخلاق المركّبة في مزاج الإنسان ، والمُجملة في الصّفات الخمس التي رُكِّبَتْ فيه ، وهي صفاتُ جميع الوجود ، فإنّه إذا هاجتْ الشّهوة مثلاً بكثرة الأكل والشّرب وبقوّة المزاج حصل في القلب مِنه أثرٌ ، فالقلب يتغيّر ويتأثّر دائما من هذه الأسباب الواردة مِن قِبَل الظّاهر والباطن ،

فالخاطر كلّه في حقّ العارف بالله تعالى لا يكون إلاّ بخير ، لأنّ نفسَه صارتْ نفْسًا مطمئنّةً فلا تأمره إلاّ بخير فلا فرق عندها بين الخواطر ، لأنّه يُقابل كلَّ تجلٍّ بما هو أهله وبما هو مشروعٌ له ، ولأنّه حَسَمَ مادّة إتّباع الهوى فلم يَبقَ فيه مُتّسَعٌ لغيره تعالى ، لا بمعنى أنّه لا يغضب ولا يعصي الله في قول أو فعل ، بل الغضب من الطّبع البَشَريّ وما بالطّبع لا يزول ، لكن إذا غضب لا يعمل بمقتضى الهوى في غضبه ولا في عِصيانه ، فإنّ مُقتضى الهوى في الغضب مُخالفة الشّرع ، ومُقتضاه في المعصية الإصرار عليها وعدم التّوبة منها ، فمن عصى وتاب أو غضب ولم يُخالف الشّرع فقد قابَل كلّ تَجَلٍّ بما هو مشروعٌ له وذلك تمام الحكمة ،

وأمّا في حَقّ المُريد المُبْتَلى بالنّفس الأمّارة بالسّوء والنّفس اللّوّامة والشّيطان فتنحصر الخواطِر له في أربعة :

خاطرٌ ربّانيّ وخاطِرٌ نفسانيّ ؛ وهما ثابتان لا يتزحزحان ولا يتزلزلان ، فأمّا الرّبّاني وهو الذي يكون بالخير غالبا مع تأنٍّ ، أي يكون مجيئه متراخيا ثابتا ومع عِلمٍ بالعاقبة وخوفٍ من الغوائل وفي التّوحيد الخاصّ ، أي فيما يُوَفّقُ إلى عِلمٍ أو عمل ، مع بُرودةٍ وانشراحٍ ؛ وقد يكون بالشّرّ عقبَ ذنبٍ ويكون حينئذٍ عقوبةً ، ولا تحصل العقوبة إلاّ بوقوع الشّرّ المَدْعُوّ إليه أو بطول التّعهّد له ، لا بمجرّد مرور ذلك بالبال ؛ وأمّا النّفساني ، فهو الذي يكون أيضا بالخير لكن مع عجَلةٍ في حال مجيئه لا متراخيَ الوقوع ، مع غفلةٍ عن عاقبة هذا الخاطر وغوائله ، وقد يكون بالشّرّ عقيب ذنبٍ ويعقبه يبسٌ وانقباضٌ ، فمَثَلُ هوى النّفس كمَثَلِ الطّائر الجارِح لا يكاد يرجع حتّى يَقتُلَ ، أو كالنّسر لا يرجع إلاّ بقَمْعٍ ظاهِرٍ مُزعجٍ ، والجامع بين هذين الخاطرين (أيْ الرّبّاني والنّفساني) الثّبوتُ والإتيان بالخيْر على الوجه الذي وصفناه ؛

أمّا الخاطرالثالث والرابع فالملَكي والشّيطاني ، وهما مُترادفان ، وذلك هو الجامع بينهما : فالمَلَكي لا يأتي إلاّ بخير أبدًا كالأمر بالطّاعة ، فإن لم يُجَبْ إليها أمَرَ بأخرى فأُخرى وهكذا، وأمّا الشّيطاني فلا يأمر غالبا إلاّ بالشّرّ ، فيأمر بمعصيةٍ فإن لم يُجَبْ إليها فبأخرى فأُخرى ولا ييأس إلا بعد موت العبد ، وقيل بل بعد سؤال المَلَكَيْنِ في القبر ، فإنْ أمَر بخيْرٍ فهو مكرٌ واستدراجٌ ، فإن لم يجد سببا ظاهرًا إلى المعصية أتاه مِن جهة الطّاعة ، على سبيل التّصنّع والتّزيّن من وراء حِجاب الطّاعة حتّى يُحصّل غرضَه ، ويصحب هذا الخاطر حرارةٌ وضيقٌ وتكدّر في الوقت وقد يتبعه كسلٌ ، فمثله كمَثَلِ الدّنيا إذا طَرَدْتَها مِن جانبٍ دخلتْ مِنْ جانِبٍ آخر ، فالمَلَكُ مُرشدٌ ناصِحٌ أبدًا فلا يأمر إلاّ بخيرِ ، والشّيطان خُلِقَ في مقابلة المَلَكِ لا يدعوا إلاّ إلى الشّرّ تصريحًا أو تلويحًا بتلبيسه ، وقد صَرَّح بهذا حديثُ (إنّ للشّيطان لَمَّة بابن آدم وللمَلَك لَمَّة ، فأمّا لَمّة الشّيطان فإيعادٌ مِنه بالشّرّ وتكذيبٍ بالحقّ ، وأمّا لَمّة المَلَك فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقّ فمن وَجد ذلك فليعلم أنّه من الله تعالى فليَحمد الله تعالى ، ومَن وَجَدَ الأخرى فليتعوّذ بالله من الشّيطان) أخرجه التّرمذيّ والنّسائي وابن حبّان كما في الجامع الصّغير ،

واللَّمّةُ بفتح اللاّم وتشديد الميم القُربُ والإتّصالُ ، والمُراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشّيطان والمَلَك ، وتمام الحديث : (ثمّ قرأ [الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ]) ، وهذه الآية قيل أنّها أرجى آية في القرآن لإبطالها عَملَ الشّيطان بالكلية ، فالفحشاء قابَلها بالمغفرة ، والفقر قابَله بالفضل منه ، فرجَع الشّيطان خاسئا لم يجد ما يضرّ به الإنس ،

فبهذا تعلم أن الخواطر متجاذبة متداخلة ، ولا يتميّز تجاذبها إلاّ بنور إلهيّ يقذفه الله في القلب ، ولا يميّزها على الحقيقة إلاّ مَن عرف ما يَدخل جَوفه ، فإذا عرف ما يَدخل جوفه عرف ما يدخل قلْبَه ، إذ المباح يُعشي القلب والشُّبهةُ تعمشُهُ والحرام يطمسُه ، ومَن أخذ مِن الدّنيا فوق ما يَكفيه أعمى الله عينيِ قلبه ، وتختلف الكِفاية بحَسب اختلاف أحوال النّاس ، فكم مِن ساعٍ لا يكفيه إلاّ حصول مؤونةً عامّةً ، وهو أعلاهم وأشدّهم حِرْصًا على الكفاية ، ومِنْ قائمٍ تكفيه مؤونةُ شهرٍ إلى أسبوعٍ إلى يومٍ وهذا في حَقّ مَنْ ليس عليه إلّا مؤونةَ خاصّةِ نفْسِه ، وإلّا فما يُدْخِلُ السّرور على العِيال ويريحهم مِنْ تشويش البال فهو من الكفاية ، وإيّاك ثمّ إيّاك أن تسمع بهذا فتُنْفِق جميع أوقاتك في جَمْع كِفايتك فتنخرط في سلكِ – ويلٌ لمن تَرَك عياله بخير وقدِم على الله بشرّ – ويصدق فيك قول القائل :

ومن ينفق السّاعات في جَمع مالِهِ ***** مخافةَ فَقْرٍ فالذي فَعَلَ الفَقْرُ

فإذا تمهّد هذا عرفت أنّ الخواطر تأتي كلّها بالخير إمّا غالبا أو نادرا ، فأمّا الخاطر الرّبّاني فيتميّز خيريُّه عن الخَيْرِ الذي يأتي به الخاطر النّفساني بالبرودة وانشراح الصّدر والتأنّي ووضوح العاقبة ، و لا يقع إلاّ عَقِيبَ الطّاعة والإجتهاد فيها ، وبكونه يأتي بما يُوَفِّقُ للعِلم والعمل ، أمّا خير الخاطر النّفساني فعلى خِلاف هذا كلّه ، ويُوافقه في عدم التّزحزح والتّردّد فقط ، كما تتميّز خيريّة الخاطر الرّبّاني أيضا عن خيريّة الخاطر المَلَكي بكونه غالبا أكثر من الخاطر المَلَكيّ ، إذ الخاطر الرّبّاني دائمٌ وروده بالخير وليس فقط في وقت دون وقت ، وأيضا الخاطر الرّبّاني ثابت وعلى نمط واحِدٍ وبكونه يأتي عَقِيبَ اجتهادٍ في الطّاعة ، والمَلَكي يأتي بالخير ابتداءً في الغالِب دون أن يثبُت في ذلك ، ويتميّز خيريّة الخاطرالرّبّاني أيضًا عن الخيريّة الوهميّة للخاطر الشّيطاني بعدم التّزحزح والتّردّد وبكونه يوفّق للعلم والعمل ويَقْوى بالذِّكر والطّاعة ، لأنّ خيريّة الشّيطاني لا يثبت ولا يُوفِّقُ لِعِلْمٍ ولا لعملِ صالحٍ في الحقيقة ، ويُضْعِفُهُ الذّكرُ و يُنْقَضُ به ،

هذا محصولُ ما يتميّز به خيريّةُ الخاطر الرّبّاني عن خيريّة الخواطر الأخرى ، فيتميّز خيريّةُ الخاطر المَلَكِيّ الذي مِن شأنه التّزحزح عن خيريّةِ الخاطر الشّيطاني الذي مِنْ شأنه ذلك أيضًا بِكَوْنِ المَلَكِيّ يَقْوى بالذّكر وتكون معه أدلّةٌ واضحة وبُرودةٌ في الصّدر وانشراحٌ ، فأثره مِثل غبش الصّبح ، بخِلاف الشّيطاني فإنّه يكون مع نشاط وعَجَلَةٍ وأسى وعَمى عن العاقِبة ، ويضعُف بالذّكر كما تقدَّم ، ويُعمَى به عن الدّليل فلا يعقبه دليلٌ ، وتَعقِبه حرارة كشعلة النّار ويَحدُثُ به احتراق وهوْسة في البدن ، وهو مِثل الفجر الكاذِب قاتم واضحٌ لكن تَعْقِبُه ظلمة يظُنّه الظّانّ حقيقةً وليس بحقيقةٍ ، كما يتميّز خيريّة الشّيطاني الوهميّة عن خيريّة الرّبّاني بالتّزحزح ، وبكونه يقع ابتداءً في الأغلب ~أي بلا طاعة أواجتهادٍ تسبقه ~ ، وبكوْن خَيْريّته دائمة وليستْ غالبة ، بخلاف الرّبّاني الذي لا يقع خيرُهُ إلاّ ثابتًا أوبعد اجتهادٍ في الطّاعة ، وغالبًا لا دائمًا ، وعَن خَيريّةِ النّفساني بالتّزحزح أيضًا وبالإنشراح والبرودة والدّيمومة (أي ديمومة أثره ونفعه ، لا ديمومة وُرودِه كما ذُكر) ،

فإذا مَيّزْتَ بين خيريّة الرّبّاني وخيريّة المَلَكيّ ، ومَيّزْتَ خيريّة النفساني على ضوء خيريّتي الرّبّاني والمَلَكيّ ، استطعْتَ تمييز الخيريّة الوهمِيّة للشّيطاني ،

وكما أنّ الخواطر كلها تأتي بالخير كما رأيت ، كذلك كلّها تأتي بالشّرّ ، إلّا المَلَكيّ فقط ، فإنّه لايأتي إلّا بخير كما قدّمنا ، فشرُّالخاطر الرّبّاني يتميّزعن شرّيْ النّفساني والشّيطاني بكونه لا يكون إلّا عقيب ذنبٍ ، بخلافه في النّفساني والشّيطاني فلا يكون عَنْ ذنبٍ ، إلّا أنّ شرّ النّفساني ثابتٌ وشَرّ الشّيطاني متزلزل يأتي ويروح (فترى الشّيطان ينوّع المعاصي على العبد ويجدّد حِيَلَه ، بخلاف الخاطر النفساني

يُصِرُّ على لون معيَّنٍ ومُفَضَّلٍ من المعاصي) ، ووجْهُ إتيان الرّبّاني بالشّرّ عقوبةً ومَكرًا أنّ المَلَك لمّا أَمَرَ ابتداءً بالخيرإلهامًا مِن الله ، وبَيَّن للعبد الطّريقةَ المُثلى ثمّ لم يَمتثِل أمر خاطر المَلَك استَحَقّ العقوبة ، فأتاه الرّبّاني بخاطر الشّرّ عقوبةً ليَزيدَه رِجسًا إلى رِجْسِهِ ، كما أنّه لو امتثل أمر الخاطر المَلَكي لزاده الرّبّاني إيمانًا إلى إيمانِه جزاءً وِفَاقًا [فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ] (وهنا تفهم لماذا لا يزيد شهر رمضان بعضَ النّاس إلا بُعدًا عن الله تعالى رغم صيامهم ولكن بعد انتهاء الشّهر يعودون إلى المعاصي من جديد ولا يقدرون على التخلّص من الإدمان على التّدخين مثلًا ، ولتعلم أيضا أن الخاطر الرّبّاني نادر وعزيز في الخَلْق ، وكيف انقلب إلى شرّ ومكر واستدراج في حقّهم [يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا] ، فاحذر) ،

وبالجملة فالخواطر إمّا ثابت أو متردّد ، والثّابت إمّا خيرٌ بَعد طاعةٍ مع تأنٍّ وعِلمٍ بالعاقبة وخوْفٍ من المكر مع تحقيق التّوحيد ، وإمّا بالشّرّ وعَقِبَ ذنبٍ فهو الخاطر الرّبّاني ؛ وإمّا بالخير مع عَجَلَةٍ وعمًى عن العاقبة واستسهال الغوائل الواردة مع المعاصي ، أو بالشّرّ لا عقيب ذَنْبٍ فهو الخاطر النّفساني ؛ أو مُتَرَدِّدٌ إمّا بخيرٍ مقصودٍ بالدّليل وهو الخاطر المَلَكيّ ، وإمّا بِشَرٍّ أو خيرٍ لا يعضدُهُ دليلٌ (من وحيِ الكتاب والسّنّة) وهوالخاطر الشّيطاني ،

فالرّبّاني والمَلَكيّ محمودان، والنّفساني والشّيطاني مذمومان ، وإن كان الكلّ ربّانيًّا في الحقيقة (إذ أنّ الخواطرأوّلَ ما تأتي فمِنَ الملإ الأعلى ، فإنْ كان القلب دائمًا هناك في الملإ الأعلى ، لا يَرد عليه حينها سوى الخواطر الرّبّانية ، فإن ورد عليه خاطر شيطاني غلبه بالوارد الرّبّاني هناك في الملَإ الأعلى قبل ارتداده لأسفلِ سافلينَ الملإِ الأدنى ، والعكس صحيح بالنّسبة لمَن خواطره دائمة التردُّدِ في حضرة الملإِ الأسفل ، فافهم) ؛ ولكن هذا باعتبار النِّسَبِ ، فَما يَجْري منها نُسِبَ إلى الأصل ، فالكُلُّ مِنْ عِند الله [فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا] ، فلو فَقِهوا حديثًا لعرفوا أنّ الله تعالى هو الحَكَمُ العَدْلُ ، مَنْ يُظهِرُ الأشياء على وفق ماهي عليه في نَفس الأمرمِن شقاوةٍ أو سَعادةٍ ، هو الذي بَرَزتْ به وظَهَرَعليها في الوجود الخارجيّ [قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ] ، أيْ فلو كانتْ تَقَدّمتْ لكم المَشيئةُ في الأزل بالهداية جميعًا لَمَا جعلكم إلّا كذلك في الوُجود الخارجي (أيْ لو تقدّمتْ لكم المشيئةُ في الأزل بهِدايتِكم أجمعين لما جَعَلكم مُختلفين في أرض الدّنيا أرض الإمتِحان) ، لكن سَبَقَتْ لكم في المَشيئة ألّا تزالوا مُخْتَلِفين [فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ] ، فخُلِقْتُم على نَحْوِ ما كنتم عليه (أيْ على نحو ماكنتم عليه في علم الله تعالى الواسِع المُحيط قبْل خَلْقِكم بَل قَبْل الأزل ، بأنْ أعْطى كلّ شيء خَلْقَه ثمّ هدى ، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَه) ، وربُّك الفتّاح العليم ، الرّحمن الرّحيم ، العليّ العظيم .

الخطّة الثّالثة في كيفيّةِ مُدافَعَة الخواطر بطريقةٍ لا مَحيدَ للمُريد المُؤمِن عنْها :

اعلم أعانك الله وعامَلَكَ بلُطفه الجميل ، وكان لِي ولَكَ في المُقام والرّحيل ، أنّ مُدافعة الخواطر بَعد معرفة مَواردها ومَصادِرِها هي أبعَدُ بَعيدٍ ، و لا تكون إلّا بَعْد جُهْدٍ جَهيدٍ ، ولكنّ الله على كلّ شيء قدير، وبالإجابةِ لِمَنْ لَجَأَ إليه جَدير ، وها أنا أذكر لك مِنْها رَشْفَةَ عُصْفورٍ ، فإنّ مَجراها عميق ، والطّالِب لِلُجَّتِهِ غريق ؛

فَمُدافعةُ الخاطر الرّبّاني الشّرّي تكون بالتّوبة مِن تلك المعصية بِعَيْنِها ، أيْ التي كان الخاطر الرّبّاني الشّرّي عقيبًا لها ، بحيث ينشرح الصّدر بتلك التّوبة ، ويُنْتِج ذلك رجوع الرّبّاني إلى أصله مِن انقلابه إلى جِهةِ الخير بعدما كان إلى جهة الشّرّ عقوبةً ، لأنّ التّوبة مِنْ جِهةِ الطّاعة التي لا يعقبها إلاّ خيريّةً كما قَدّمنا ، فيُبْصِرُ العواقبَ ويخاف الغوائل ويَتّقي المَحارم ، فإذا آنَسَ ذلك مِنْ نفسه فقَدْ دَفَعَهُ ، فهو أيسرُ الخواطرِ رَدًّا إلى الخير ، وسُمِّيَتْ هذه التّوبة مُدافعةً للرّبّاني الشّرّي على سبيل التّسامح ، لأنّ المُدافَع حقيقةً هو الباعث على الشّرّي الذي كان الرّبّانيّ عقيبَه برجوع الرّبّانيّ إلى أصله الغالِب عليه عقيبَ الطّاعة ، وانقلابه إلى عقوبةٍ ومَكْرٍ وبُعْدٍ لمْ يكنْ صَيَّرَ الأمرَ كأنّه مُدافعةً ، فبانشراح الصّدر للتّوبة يَعرفُ رَجوعَه إلى أصله، بخلاف الشّرّي النّفساني والشّيطاني فلا يَعْقِبُه إلّا اليُبْس والإنقباض ، وقَدْ عَرفت الفَرق بين شرّيّةِ كُلّ منهما بثُبوت الأوّل وتردّد الثّاني في حال التّسلّط ، وأمّا في حال القمع لكلٍّ منهما فلا يَعقبهما إلّا خيريّة الرّبّاني وخيريّة المَلَكيّ ، كلّ واحدٍ يُقابله في الصّفة مِن الثّبوت والتّزحزح عن الشّرّ ،

ومراقبة الخاطر النّفساني يكون بكلّ ما مِن شأنه أن يدمَغَه بالرّياضات والمجاهدات مِن سَهَرٍ وجوع وصمت وعُزْلَةٍ ، كلٌّ في محلّه مع اللجوء إلى الله تعالى ، هذا في الزّمن الأوّل والسّلف الصالح من الرّعيل الأوّل ، قَبل أن تَغلظ الطّباع وتَستولي النّفوس وتنتشر العلائق وتَشيع العوائق وتكاثَرَ أعوان الشّرّ ، وأمّا في زماننا اليوم فلا تُدافَعُ الخواطرالنّفسانيّة إلّا بدوام اللّجوء إلى الله تعالى والتّشبّث بأذيال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبحَرْمة المشايخ والدّعاة إلى الله تعالى ، فإنّ النّفس كالكلب المُسَلَّط ، والإشتغال بمُحاربته تعبٌ وتضييعٌ للوقت ، فالرّجوع إلى رَبّه في صَرْفِه أولى مِن مُجاهدَتِه ، فهي من الطّائفة الأخرى التي لم تَقدروا عليها قَدْ أحاطَ الله بها ، ثمّ بعد اللّجوء والتّشبّث يتعاهدُها بتذكيرِها نِعَمَ المُنعِم وإحسانه إليها في مقابل إساءتها ، بِتَتَبُّعِها إساءةً إساءةً وإحسانًا إحسانًا ، وأنه يتودّد إليها بالنّعَم وتتبغّضُ إليه بالمعاصي مع فَقْرِها إليه ، وكفى بذلك دناءةً حتّى تَسْتحيي حياءَ الكلب مِمَّنْ أحسن

إليه ، فيتواردُ عليها الحياءُ قليلًا حتّى تَبلُغَ الحياءَ المُشار إليه في حَديثِ (استحيوا مِن الله حَقَّ الحياء ، قالوا يا رسول الله إنّا نَسْتَحيي والحمد لله ، فقال : الحياءُ أن تَحْفَظَ البَطْنَ وما حَوى وتَحْفَظَ القلبَ وما وَعى وتذكُرَ الموتَ والبِلَى ، فمَنْ فَعَل ذلك فقد استحيى مِنَ الله حَقَّ الحياء) ، أو كما قال عليه السّلام ، فتَنْزَجِر بذلك ، وإلّا فهِي مجبولةٌ على الميل لِشهواتها واتّباع هواها بحركاتها وسَكناتها ، فالنّفس الأمّارةُ بالسّوء غايةُ خيرها أن يَخطُرَ ببالِها الخيرُ ولا تأتيه إلاّ بشهوةٍ مِن غير مُلاحظة الشّرع في كونه مُباحًا أو حراما ، وإن فقدت التّشهي لم تَقربه مِن غير ملاحظة جانِب الشّرع فيه أيضا ، فهذه هي النّفس التي الهوى معبودُها ، وشهوتُها مقصودُها ، لا يخطر ببال صاحبها غيره كعَبَدَةِ الأوثان وأكابر عَوامّ فَسَقَةِ العِصيان ، سَوَّلَ لهم الشّيطان فأمْلى لَهُمْ ، فإن فعلوا الخير لمْ يدرون لِمَ فَعلوه ، وإن تركوه لا يعلمون لِمَ تركوه ، كالجَمل مع أهله لا يدري لِمَ أطلقوه ولا لِمَ عَقَلوه ، [أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَفِلُونَ] عمّا خُلِقوا له ، فَهذا الخاطر لا يُدْرى له وجهٌ لِدورانِه مع الشّهوة حيثما دارتْ يدور ، فَقَدْ يُواجهه يومًا عِبادةُ دَوْحةٍ لِظِلِّها الظّليل فيَعْبُدَها ، ويُواجِهُه يومًا قَطْعَها لِغَنَمِهِ مثلًا فيَقْطَعَها ، ويُواجهه أكْلَ مالَ هذا فيأكلَه ، ويواجهه تركَه فيترُكَه ، فهذا غايةُ خيريّةِ الخاطر النّفساني أن يكون مصروفًا إلى المُباحات لا إلى الطّاعات ؛ ثمّ إن أمَدَّ الله تعالى نفسَه هذه بالإسلام والتّوبة مِن كبائر الآثام وجعَلَتْ أوامر الشّرع ونواهيه ببالها ، واكترثت باجتنابها وامتثالها في بَعضِ أحْيانِها ، إمّا غالبًا وإمّا نادرًا ، فحينئذٍ يَصِحُّ التّمييز بَين خواطرها تأمر تارةً بالطّاعة وتارةً بالمعصيةِ ، وخاطِرها هو الذي وصَفناه بالعَجَلَةِ حِينَ ورودِه على القلب مَعَ ثبوته بعَدَم الذّهاب وعدم تَفَكُّرِ العواقِب بدون مُواقَعَةِ ذَنْبٍ ومع الأمر في جميعِ أحواله خيريًّا كان أم شرّيًّا ، وخَيْرِيُّها ممزوجٌ بِشرّيِّها ، فلا يُزعِجُه إلّا صَدْمَةُ الخاطر الرّبّاني الخَيْرِيِّ ، وذلك كما عَلِمْتَ لا يكون إلّا بَعْد اجتهادٍ في الطّاعة لِقَوله تعالى : [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا] أيْ إلى سبيل العِلم والعَمل ، فيَعملون ما لم يكونوا يَعملون ويَعلمون ما لم يكونوا يعلمون ، وأمّا بعد المعصية فلا مُدافعةَ ولا مُراجعةَ ، فيَتعاضَدُ شرّيُّها ، أي الشّهوة النّفسيّة ، مع شرّيِّ الخاطر الرّبّاني عقوبةً ، و مع شرّيِّ الشّيطانِ عَداوةً ، فَيَنْتَسِجُ ذلك العمل بِمِنْسَجِ الرّدى ، حتّى يَظنّ الظّانّ أنّ هذا العبد تُرِكَ سُدًى ، فأمْرُهُ غُمَّةٌ ، وضَوْءُهُ ظُلمة ، فإن وُفِّقَ إلى التّوبة وهُدِيَ إلى الطّاعة ، مَيَّزَ الله الخبيثَ مِن الطّيِّب فيَرجِعُ الرّبّانيّ ربّانيًّا حقيقةً ، والنّفسانيّ نَفسانيًّا طَريقةً ، والشّيطانيّ خاسئًا مَثْبورًا ، ويَظْهَرُ أمرُ الله قَدَرًا مَقْدورًا ؛ فالخاطر النّفسانيّ أَثْبَتُ شَامِخٍ على وَجْهِ الأرض ، لأنّ النّفس تدعوا إلى شهوتها فيكون غَرضُها في عَين تلك الشّهوة بِخُصوصِها ، فلا تنتقل عنها إلّا بحصولِها ، ولا يُزعِجُها إلّا وازعُ شَوْقٍ مُقْلِقٍ أو خَوْفٍ مُزْعِجٍ (مع صُحبة مَن يُذَكِّرُكَ بالله حالُه ويَدُلُّكَ على الله مَقالُه ، كما ذكرنا في كتابنا " خُطوتان للحقيقة ") ، وباعِثُ الشّوق أولى في حَقِّ النّفوس اليومَ لِما هي بِصدده مِن السُّلطَنَةِ والبُعْدِ مِن التّخلية عن الأخلاق المذمومةِ ، فإذا واظَبَ المُريدُ المُؤمِنُ على مُحاسبَتِها بتعداد نِعَم المُنعِمِ عليْها وأفضاله المُساقِ إليْها بأنواع الفضائل ، وتعداد إساءَتِها في مُقابلة ذلك ، لا بتعداد معاصيها وطاعاتها حذوَ النّعال بالنِّعالِ ، وعلى وَزن المِثقال بالمِثْقال ، ذَرّة شرٍّ بذَرّةِ إحسان ، أقلقها الشّوق لا محالةَ ، وقَادَها إلى المُنْعِم بسبب إنْعامِه لا بسبب انتقامه ، لأنّها أنثى رُجِّلَتْ ، فأُسْكِنَتْ بما اكْتنَفها مِن دواعي الشّرّ المُطابقة لمُرادِها ، فأعْماها ذلك عن أمر مَعادِها ، والإناثُ قواريرٌ لا ترتيب إذا انكسرتْ ، ولا تستقيم بالزّجر إذا زُجِرتْ ، فالأنوثة أعصى شيءِ على التّصحيح وأقوى القِوى على نفوذِ ما تَوَجَّهَتْ إليه ، فمِمّا يدلُّكَ على أنّ الأنوثة أقوى ما يكون ما حَكى الله تعالى في كِتابِهِ الحكيم مِن التّظاهر على عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما بقولِه [وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ] ، فالحكمة في هذا التّظاهر والتّعاون والله أعلم التّنبيهُ على قُوَّةِ الأنوثة وعِظَمِ كَيْدِها ، أمّا ما

يَدُلُّك على رجوليةِ النّفس فَمُبارزتُها بخاطرها للخاطر الرّبّاني ومُحاربتُها إيّاه الحرب العَوان ، فهي بهذا الحرب رجلٌ ، وبِكوْن هِمَّتِها في شهوتها وعكوفها عليها وركونها إلى مُقتضياتها هِيَ أنثى ، لأنّها متى غَلَبَتْ عليها هذه الشّهوات تنزجر عنها إلّا إذا أصابتها ، ولوْ تَشَفَّعْتَ لها بالله سبحانه وتعالى ثمّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبجميع أنبيائه وملائكته وكتبه ورسله وبجميع السّلَف الصّالِحِ مِن عِبادِه ، وتَعرض عليها الموت والقبر والقيامة والجنّة والنّار لما أعطَتْكَ القِيادة (أي للقلب الذي هو بيت الرّبّ تبارك وتعالى) ، ولا تَترك الشّهوة ، ثمّ إن استقبلتها بمَنْعِ رغيفٍ تَسْكُن وتتْرُكْ شهوتَها ، فالشّيطان يَقْوى بها ويُلْقي لها الخاطر على وَصْفِهِ المُتَقَدِّمِ مِن الخِفَّةِ ، فتلتذُّ مِنه لِما فيها مِنْ معنى الأنوثة ، حتّى تَبلُغَ سبْعين خاطرًا وهي لا تزال ثابتةً لا تتزحزح ، وليس للشّيطان في تلك الخواطرإلّا خاطرٌ واحدٌ ، ولقد أحسن القائلُ :

تَوَقَّ نفسَكَ لا تأمَنْ غوائلَها ***** النّفسُ أخبثُ مِنْ سبعين شيطانًا

وذلك لِما جُبِلتْ عليه مِن الأوصاف العظيمة مع أخلاقٍ ذميمة وأخلاطٍ مسمومةٍ ، لأنّها رُكِّبَتْ فيها الصّفات الرّبّانيّة والصّفات الملائكيّة والصّفات البهيميّة والصّفات الشّيطانيّة والسّبعيّة ~ جنبًا إلى جنبٍ~ ، ولكلٍّ منها علاجٌ مُخالِفٌ لِعلاج غيره ، فالصّفات الرّبّانيّة التي هي مثل الكِبَر والمدح والغِنى والبقاء والرّياسة والتّجبّر ، حتّى أنّه لَيكاد أن تدّعي الرّبوبيّة بلسان مقالها ، أمّا بلسان حالِها فلم يثبت سوى تعرّضها لذلك مِن رؤية الشّفوف و التّرفّع على مَن كان تحتها ولو على العِيال من العِتاب الدّائم ومحاسبتهم على النّفير والقطمير ، ومن عصاها منهم يُكادُ أن تخسف بهم الأرض ، وتمنع رِفْدَها جهرَها ممّن تعلم احتياجها إليه ، إلى غير ذلك ممّا يتضمّن رؤية النّفس فوق مقامها ، والتي تكاد أن تقول بينهم ما قال فرعون : أنا ربّكم الأعلى ؛ وأمّا الصّفات المَلَكيّة فكالإنابة إلى الله تعالى والتّضرّعُ إليه واللّجوء والإتّكال عليه والخوف والخشية والرّغبة بِما عِند الله تعالى ؛ وأمّا الصّفات البهيمية كشهوة البطن والفرج والحنين والتّعطّف المُبالغ فيه على الولد مثلاً وعدم نظر العَواقِب ونحوها ؛ وأمّا الصّفات الشّيطانية فكالغشّ والخديعة والمكر والتّكالب على حُطام الدّنيا والإستعجال والكيد والطّيش ؛ وأمّا الصّفات السَّبْعِيّة فهي البطش والتّعدّي والإستيلاء والإفتراس والغضب ؛ فجَمَعَ هذا الهيكل الإنساني مع صِغر حجمه كل من الصّفات الرّبّانيّة والمَلَكي والبهيمي والشّيطاني والسّبعي ،

فالعالَم كلّه يسمّى العالَم البسيط ، وسُمِّيَ الإنسان وحده بالعالَم الوجيز (كما ذكرنا في مَطلع الفصل الخامس من كتابنا " خُطوتان للحقيقة ") ، وآخِر ما يخرج مِن هذه الصّفات مِن الصِّدّيقين الصّفاتُ الرّبّانيّة ، فيالها مِن صفاتٍ تَجَلَّتْ في هذا الهيكل الإنساني ليَكْمُلَ بها ، فأحَلّها في غير مَحَلّها فأخْلَد بها إلى الأرض لَمّا اتَّبَعَ هواه فرَدَّتْه أسفل سافلين ،

ومُدافعةُ الخاطر الشّيطاني الشَّرّي حقيقةً و الخَيْرِيّ صورةً ، تكون بذكر الله تعالى وبِه يَضعف ويَنقَبِضُ ، واخْتُلِفَ هل يُحْسَمُ مادتُه بالذّكر وينقطِع بالكلية ، لكن مَنْ أراد دَفعَه حقًّا فلا يطمع في ذلك إلّا بِمعرفة سِرِّ مَداخِلِه التي يَدخلُ منها للقلب بتطهيره ، أي القلب ، مِن الصّفات المذمومة مِن هَمِّ الرّزق وخَوف الخَلْق وحُبّ المدح مِنهم والمَيل إلى الرّاحة ، فإذا رفضت النّفس الخاطر الشّيطاني رفضًا تامًّا وقامت التّصفية بالقلب ، كان للشّيطان به خطواتٌ ، وإن لم يكن لها استقرارٌ به ، وحينئذٍ يدفعها ذكرُ الله تعالى ، لأنّ حقيقة الذّكر لا تتمكّن مِن القلب إلّا بعد عِمارته بالتّقوى وتطهيره مِن الصّفات المذمومة ، وإلّا يصير الذّكر مجرّد حديثَ نفسٍ لا سُلطان له على القلب فلا يَدفع الشّيطانَ ، ولذلك قال تعالى : [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ] خَصَّصَ ذلك بالمُتّقين ، والشّيطان

ككلبٍ جائعٍ يَقْرب مِنك ، فإن لم يكن بين يديك لحمٌ أو خُبزٌ فإنّه يَنزجرعنك ، بأن تقول له إخسأ ، وبمجرّد الصّوت يهرب ، وإن كان بين يديك لحمٌ وهو جائعٌ لمْ يندفِعْ بمجرّد الكلام ، فالقلب الخالي عن قوتِ الشّيطان ينزجر عنه بمجرّد الذّكر، والشّهوة هي قوتُ الشّيطان (أي صرف الشّهوة في غير طريقها المستقيم يجعل صاحبَها يَضل بشهوته وطاقَتِه الطبيعية لينحرف إلى صراط الشّيطان الأعوج الذي يتلقّفُه هنا كلقمة سائغة فيستغلّه وشهوتَه في غير ماخُلِقتْ له حتّى يَشقى دنيًا وأخرى ، كما قال تعالى [فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ]) ، فإذا غَلَبَتْ الشّهوة التي هي قوت الشّيطان على القلب أبْطَلَتْ حقيقة الذِّكر إلى أطراف وحواشي القلب فلا يَتمكّن مِن سُويدائه فيعشّش الشّيطان فيه ، ولذلك تُشاهِد الوسوسة مع الذّكر عيانًا ، ولا وجه لذلك إلّا هذا ، (ولذلك ذكرنا في كتابنا " خُطوتان للحقيقة " أن أول أصول السير إلى الله تعالى هو الذّكر ، لكن قيّدناه بشرط الإجتماع فقلنا : ذكرٌ باجتماع ، وليس مجرّد أيّ ذِكْر ، فحاشا لله تعالى أن يَجعلَ شريعته لعبةً لكُلِّ وارِدٍ) .

(خاتمة و توجيهات) :

حاصِلُ الأمر وفاصِلُه

أيّها الأخ الكريم استَنْصَحْتَنا وطَلَبْتَ مِنّا ما لا يُطلَب مِن أمثالنا ، وأَلْبَسْتَنا حالًا ليس كما في عِلمنا مِنْ أحْوالنا ، ولكنْ لعلّ حسن إعتقادك ، يوصلُكَ إلى مُرادِك ، فكمْ مِن مُسْتَنْصِحٍ بَلَغَ بالنّصيحة ما لم يبلغه ناصِحُه ، وكم مِنْ مُسْتَنْزِحٍ أتى على ما ينزح مِنه نازحُه ، فالقول الفَصْل ، والحقُّ الأصلُ ، أنّ الخواطر طالَ عليها الأمَدُ فقَسَتْ قلوبُها ، وعَصَفَتْ عواصِفُها ، فاختلطتْ شِمالُها وجنوبُها ، وسِواكَ وأنتَ لا تُريه العَمَلَ ، بسؤالٍ مُهْمَلٍ ، وعَمَلٍ في غَيْرِ مَعْمَلٍ ، أَخْرَجْتَ مِنَّا به هذه النَّبْتَة المُحَرِّضَةُ الحاثَّةُ ، عسى الله أن يَجعلَ لكَ فيها مرتعًا ومَرْبعًا ، ولقدْ كان في غيرها مِن المُصَنّفات التّكلُّم فيها على الخواطر ، مُقْنِعٌ وكِفايَةٌ ، لِمن له بِشأنِها غايةٌ ، لكنْ مِنَ الخَلْقِ الجديد بالخُلُقِ الجَريد أولى ، ولَوْ كان كلامنا المُتَقَدَّمُ أفصحُ وأعلى ، والنّفس مِنْ شأنها التشوُّفُ إلى ما جُدِّدَ ، لا إلى ما قد وُجِدَ و عُهِدَ ، والشّأن برحمة الله تعالى لمُريدٍ مُؤمنٍ أخَذَ مِنّا هذه النّفثة ، باسِطةً في مُرادكَ ومُرادِه ، وقابضةً بقوّةٍ باجتهاد ، قاصدًا سبيلَ الرّشاد ،

اعلمْ أيّها الأخ المُريد والمؤمن أنّ النّفس مؤنّثة خَرَجَتْ مِنْ بين مَذَكَّرَيْنِ : جسد وروح ، ولكلٍّ منهما سروحٌ ، وخاطرُها خاطرٌ بيْن خطيريْن ، محمودٌ ومذمومٌ ، كما هو معلوم ، فالخيريُّ الدّافع فيها كائنًا ما كان محمودٌ ، ربّانيًّا كان أو مَلَكيًّا ونافذٌ غيرَ مردودٍ ، والشّريُّ أيضًا مِنْ أيّ شيءٍ كان مَذْمومٌ ، شيطانيًّا كان أو نفسانيًّا ، وأمّا الشرّيُّ الرّبّانيّ فليس بِشرّيٍّ في الحقيقة ، فإنّه يُنْتِجُهُ معصيةٌ عوقِبَ مُرتَكِبُها به كما عَلِمْتَ ،

فإنْ أَحْبَبْتَ أن تقِفَ يا أخي على حقيقةِ ذلك فاستعِنْ بالله تعالى والجأْ إليه فارًّا إليه مِنْ أعداءٍ ظَفِروا بك فأسَرُوكَ يريدون قتْلَكَ ، (يشير المصنّف رحمه الله تعالى إلى أصدقاءٍ وأصحابٍ وأهلٍ لا ينفعونك في حياتك ، وإنّما يؤخّروك ويسوّفوك عن السّير إلى الله تعالى ويجعلونك عالقًا معهم في بيئتِهم الرّمادية ، ولمّا تموت لن يأتي أحدٌ منهم ليشفع لك ، لأنّك وصلْتَ إلى الله بالموت فقط ، لا بالسّير والسّلوك الشّرعي الذي يجهله كثيرٌ مِنْ مُدَّعيهِ ومُنتقِديه ، فاحذر) ، واضطَرَّ إليه في كلّ حالٍ كالغريق في البحر ، والضّالّ في القَفْرِ ، فإنّكَ غريقٌ في بحر شهواتكَ ، ضالٌّ في قَفْرِ خَطَراتِكَ ، ومَن غرقَ في البحر أو ضَلَّ في القَفْرِ لا يَهُمُّهُ إلّا تخليص نَفْسِه بأيِّ وجهٍ ممكنٍ ، فلا تَجِد غريقًا في البحر أو ضالًّا في القَفْرِ يَخْطُرُ ببالِهِ في النّجاة ما سيكون مِن أسبابٍ لنجاته ، ولو بما كان يظنّه مِن قَبْلُ مِن أسبابِ العَطَبِ ، كما وقَعَ لبعضهم حِينَ وَقَعَ في بئرٍ فانسَدَّتْ عليه ، فأتاه أَسَدٌ فأخْرَجَه منها ، فقال سُبحانك ربّي نَجَّيْتَني مِنَ العَطَب بالعَطَبِ ؛ لأنّ أسباب النّجاة في حَقّه تعالى سواءٌ ، فالضّالّ والغريق يبلُغُ كلّ منهما مِن الوَلَهِ

والحيرة ما لا يَخْطُرُ معه إلّا محضّ الخَلاص وهو المُرادُ ، فرُبَّ معصيةٍ أوْرَثَتْ ذُلًّا واستصغارًا ، بلَّغَتْ بما يَتَرَتَّبُ عليها الفِردوس الأعلى دارًا وقَرارًا ، وَرُبَّ طاعةٍ أوْرَثَتْ عِزًّا واستكبارًا ، و بَلَّغَتْ صاحبَها ثُبورًا وبَوارًا ، فما دمت تُميّز لأجل السّلامة والنّجاة سببًا عن سببٍ ، فاعلم أنّكَ لم تبلغ بعدُ حَدَّ الإضطرار الذي وَعَدَ الله تعالى مَن اتّصَفَ به بالإجابة فقال : [أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ] ،

فيجب أن تُمعِن النّظر وتُحيلُ الفكر ، في مواضِعِ عواصِف وزعازع الأقْدار، التي تَجري عليك آناء الليل وساعات النّهار ، فتُقابِل كلّ قدَرٍ بما أمَرَكَ الله تعالى بِه على لِسان نبيّه وذلك على التَّقَلُّب والتّصريف ، فبوقوع المعصية والطّاعة فيك ، تمّتْ فيك الحكمة دون غيرك مِن العالَم الذي يُوازيك ، فجاءت مِن جِنسك رُسُلٌ وأنبياء ، وصُلَحاءُ وأولياء ، وفَسَقَةٌ وأغوياء ، ففاز بالتّفضيل والتّكريم ، وعَمَّ ذلك على جميع جِنْسِكَ كلُّ النّعيم ، فأخبرعنهم سبحانه وتعالى عن ذلك ، ولم يَجعل خُصوصيةً لأحدٍ منهم فيما هنالك ، فقال : [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً] ، ثمّ أخبرنا عن الشَّرّيّة البشريّة فقال : [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ] ،

فإذا أمْعنْتَ النّظر في طوارق الليل والنّهار المُحيطة بك ، وَجَدْتَ الأقدار و الأوقات دائرةً على أربعة أشياءٍ لا خامس لها : إذ القَدَرُ لا يدورُ عليك إلّا بنعمة أو نقمة أو طاعة أو معصية ؛

ففي قَدَر النّعمة ، فقابِلْ وقته بالشّكر ولا يَسْتَخِفّنّك الشّيطان فيه ، فإنّه الصّراط المستقيم الذي أقْسَم الشّيطان بالله تعالى لَيَقْعُدَنَّ لِبني آدم فيه ، كما قال تعالى حاكيًا عنه : [فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ] ،

وأمّا قَدَرُ النَّقْمة ، فقابِلْ وَقْتَه بالصّبر والرّضا ، وأعتقِد أنّ الصّبر لم يَقِفْ لموجِبه الذي هو البلاء إلّا عُشُرعُشُرِ العُشُر مِن الخَلْقِ ، وذلك أنّ الله تعالى لمّا خَلَقَ بني آدم وقال لهم : [أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى] فأقرّوا له بالرّبوبية سبحانه وتعالى وأنّهم لا يريدون إلّا وجهه ، ولم تَشُذَّ مِنهم شاذّةٌ ولا فَاذّةٌ ، فلمّا خَلَقَ الدّنيا فَرَّ إليها مَنْ فَرَّ فلم يَبْقَ إلّا العُشُر ، ثمّ لمّا خَلَقَ الجَنّة فَرَّ إليها ذلك العُشُر ولم يَبْقَ منها إلّا عُشُره ، ثمّ لَمّا خَلَقَ البلاء فَرَّ مَنِ اخْتاره وآثَرَه سبحانه وتعالى إلى الجَنّة عَنِ الدّنيا فارًّا إلى نِعمة وعن نقمة ، فبَقِي عُشُر العُشُر واقِفِين قائلينَ له : إذا كُنْتَ أنتَ المُبتَلي فنحْن الصّابِرون ،

وأمّا قَدَرُ الطّاعة فقابِلْهُ برؤية المِنّة وشهودها مِن المَلِكِ الأعلى ، إذْ جَعَلَكَ أهلًا لَها وقَدْ مَنَعَها مِنْ كثيرٍ مِنْ خَلْقِه ، واعْتَقِدْ أنّها نعمة في جَنْبِ نِعَمِهِ الكثيرة ، المُتظاهِرة الشّهيرة ، التي هِيَ الطّاعة مِنْ جُملَتِها أَقَلُّ قَليلٍ ، وهِيَ لَهُ ، لا لَكَ ، ومِنْ عِندِهِ ، لا مِنْ عِنْدِكَ ، وإنّما نَسَبَها إليكَ فَضْلًا ،

وأمّا قَدَرُ المعصية فقابِلْ وقتَه بالتّوبة النّصوح ، ولا تكنْ أنت للمعصية أسرعُ مِنْكَ للتوبة ، فلن تَمْلِكَ لَكَ مِنَ الله مِنْ شيءٍ ، وقُلْ [رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا] ، لا على نِعْمَتِك التي أعطَيْتَنا ، فلا يَنفع ذا الجَدُّ مِنْكَ الْجَدُّ ، [وإليكَ أَنَبْنَا]، ورَجَعْنا عن مَعاصينا ، ولَمْ تَجْعَلْ التّوبةَ إلينا ، بلْ تُبْتَ عَلَيْنا أوّلًا فتُبْنا ،[وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] في طاعتك التي تَفَضَّلْتَ بها علينا ، لا بِحَوْلٍ ولا بِقُوّةٍ مِنّا ، [رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا] بأن تَبْتَلينا بما لا طاقةَ لنا به فنَعْجِز عن صَبْرِه فَيُفْتَنَ بنا غَيْرُنا ، [وَاغْفِرْ لَنَا] ما لم يَكُنْ مِنْ هذا كلّه خالِصًا لوجهك الكريم ، [رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] ، فلا يُبْعَدُ أن يُقالَ له عَقيبَ هذا : سَلْ تُعْطَ ما سَأَلْتَه ، ويُغْفَر لكَ ما فَعَلْتَه ،

وهذه الأقدار الأربعة هِي مَجموع ما يَجْري عليْكَ مِن الأقْدار ؛ فأمّا قَدَرَ الطّاعة والمعصية فَلَكَ فيه التّعَمُّل ، وتَعَمُّلُكَ فيه بالعَزْم على الإمْتِثال وعلى الإجْتِناب ، فإنْ نَفَذَ عَزْمُكَ فذلِكَ مَطْلوبُك ، وإنْ تَعَطَّلَ فالدّواءُ مَرْغوبُك ، وقَدْ عَرَفْتَه ؛

وأمّا قدر النّعمة والنّقمة فلا تَعَمُّلَ لكَ فيهِ رَأْسًا ، أيْ في وُقوعِه ؛ ولا في إيقاعِه كما في الأوّل الذي هو مِنْ كَسْبِك ، وهذا لا يَأتيك إلّا بَغْتَةً ، وأمّا بَعْد الوقوع فَتَعَمُّلُكَ فيه بِما يَقْتَضيهِ الحَقُّ مِنْكَ ،

وهذه هي الطّريقة المُثلى التي دَرَجَ عليها العارِفون ومضى عليها السّلَفُ الصّالِح رِضْوانُ الله عليهم أجمعين قبْل تَمييز الخواطِر ، وقَبْلَ مصطلح الأَجْرام والأَعْراض والجواهر ، (يُشير الشّيخ رحمه الله إلى المُشتغلين بالعلوم التي لا يَضُرَّ الجَهلُ بِها ، كالتقسيمات التي وضعها الفلاسفة الأقدمون ومصطلحاتهم التي ليس تحتها كبيرُ فائدة في خدمة علوم الشّريعة التي عليها المَعوّل والمُعتمد ، وهؤلاء لا يعرفون خواطِرهم العلميّة ، هل هي ربّانية أم نفسانية أم غير ذاك ، وكان الأولى الإشتغال بها وتعهّدها قبل الخَوْض في مثل هكذا مِن العلوم ، وكذلك يفعل كثيرٌ ممّن ادّعى أنّه من طَلَبَة العلم وبعض الدّارسين في كليّات ومعاهد الشّريعة ونحو ذلك ، فإذا اختبرتهم في أخلاقِهم وَجَدتهم شَرًّا مِنَ البهائم ، إذ العِلم والعمل بُنِيا على الخواطر ، وإن أردْتَ أن تختبر خواطرك وخواطر النّاس هل هي ربّانية في الغالب أم شيطانية في الغالِب فامتحنهم في أخلاقهم لاغير ، إذ مِداد الخواطر لا يظهر سوى في صحائِف الأخلاق والمعاملات قَبْلَ العلوم و العِبادات ، وما بُنِي على باطلٍ فهو باطل) ،

واعلَمْ أيُّها الأخ أنّ العمل بِما يَقْتَضيه الحقُّ تعالى مِنْكَ في هذه الأوقات الأربعة كما وَصَفْنا هو عَيْن الشّكر المُطْلَق ، الذي هذا الشّكرُ المُقابِل لوقت النّعمة فَرْدٌ مِنْ أفْرادِه ، لأنّ حقيقة الشّكر هو مُقابَلةُ كلّ تَجَلٍ بِما يَقتضيه الحَقُّ تعالى مِنْكَ ، حتّى يقوم العبد بما يناسبه مِنُ عَمَلٍ وتَوَجُّهٍ كما قدَّمْنا ، فدائرةُ الشّكر هي دائرة الفَضْل ، ودائرةُ الفَضْل هي دائرةَ اخْتِصاصٍ واصْطِفاءٍ ، يختصّ بها الحَقُّ تعالى مَنْ شاء مِنْ خَلْقِه ، جَعَلَها عِندَه فَيْضًا فائِضًا مِن بحر الجود والكَرَم ، لا يَتَوَقَّفُ فَضْلُها على وجود سَبَبٍ ولا شَرْطٍ ولا زوال مانعٍ ، بل الأمر واقِعٌ فيها على اختِصاصٍ مشيئتِه تعالى فقطْ ، (فقال تعالى [وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى] ثمّ أضافنا بقوله : [وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا]) ، لا يُبالي الكريم سبحانه فيها بما أعطى ولا لِمَنْ أعْطى ، فهي دائرةٌ مِنْ وراء خطوطِ الدّوائر التي هي مِن دوائر الأمر والنّهي والجزاء ، خَيْرًا كان أوْ شَرًّا ، ومَنْ وَقَعَ في هذه الدّائرة مِنْ خَلْقِ الله كَمُلَتْ له السّعادة

في الآخرة ، بِلا شوائِبَ أَلَمٍ فيها ، فكانت طريقة الشُّكر أسهل الطُّرُق إلى الله تعالى ، وكان أهلُها محْبوبين مقبولين على أيّ حالٍ كانوا ما لمْ يلبسوا حِلْية الأمان مِنْ مَكْرِ الله تعالى ،

واللهُ يَعْصِمُنا مِن الزّلل ، ويوفّقنا في القول والعمل ، واحترام حِزْبِه إلى يوم العَرْض والسّؤال ، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّدٍ سيّدُ الكَوْنَيْن ، وعَيْنُ حياةِ الدّارَيْن ، وعلى آله الأخيار ، وصحابته الأبرار ، ما دام الليل والنّهار ،

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون ، و سلام على المرسلين ، والحمد لله ربّ العالمين .

انتـهى

أهم المصادر و المراجع :

منازل القربة ، الحَكيم التّرمِذِي

إعانة المتوجِّه المسكين إلى طريق الفتح والتّمكين ، الشيخ أحمد زَرّوق

جلاء الخاطِر في الباطن والظّاهِر ، الشيخ عبد القادر الكيلاني

الإكليل في المُتَشَابه والتّأويل ، أحمد ابن تيميّة

العَرْفُ العاطِر في معرفة الخواطر وغيرِها مِن الجواهر ، الشيخ عبد الرّحمن العَيْدَروس

مواقِع النّجوم ومَطَالِع أَهِلَّة الأسرار والعلوم ، أبو بكر محيي الدّين

العَبادِلة ، أبو بكر محيي الدّين

السَّمط المَجيد في سلاسِلِ أهل التّوحيد ، الشّيخ أحمد ابن يونس المَقْدسي المَدَني

تفسير الشّيخ عبد الحميد ابن باديس

مَكْتوبات الشّيخ عبد القادر الكيلاني

رياض النّزهة على منظومة نَسمات رياح الجَنّة ، بن الهاشمي بكّار

وارِدات الشّيخ عبد الغنيّ النّابلسي ، مخطوط

خطوتان للحقيقة ، تأليف : س محمّد مُرتاض & سفيان بلحساين

الحوصلة :

_ يموت المرءُ على ما عاش عليه ويُبْعَثُ على ما ماتَ عليه _

يفتقرُ سلوك الكثير من الناس وأفعالهم في حياتهم العامّة والخاصّة ، إلى الكثير من التحكّم فيها ، فيترنّح حالُهم بين الترفّع والتذلّل ، بين الرّاحة النفسيّة وضِيق الصّدر ، وبين الصّواب والخطأ ، وما سببُ ذلك إلّا تجلياتُ هذه الخواطر: وساوِس وهواجِس ، أوْ هَوى وتَقْوى ، وبالتّالي جنّةٌ أو نارٌ ، في الحياة وبَعْدَ المَمات ، فيُبعَثُ المرء ويُحشَر على حسب آخِر خاطِرِ عاشَ له في الدّنيا ، ومنزلتُه في الآخِرة عند آخِر أيةٍ كان يقرأها ، وهي الخاطر الغالِب عليه وهو في حضْرة الدّنيا ، فهو إمّا مِنْ حضْرة القرآن وهو الخاطرالرّبّاني فيُقال له : اقْرَأ وارْقَ ورَتِّلْ كما كَنْتَ تَرَتِّلَ في الدّنيا فإنّ منزلتَك عِند آخِر آيةٍ كُنْتَ تَقْرَأها ؛ وإمّا مِنْ حضْرة الخُسْران وهو الخاطِر الشّيطاني فينطِقُ عليهم حِينَها بأفصح لسانٍ : [فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ] ؛ فكان علينا كباحِثين عن الحقيقة ، أنْ نُناجِي هذه الخواطر سعيًا للتشبّع بعلومها وإحاطةِ المعرفة بها ، وهلْ يستوي الذين يعلَمون والذين لا يعلمون ؟ ...